جدلية الواقع واللاواقع في رواية واحة الغروب

د. أسماء محمد عبدالحميد أحمد

مدرس الأدب والنقد
كلية الآداب – جامعة أسيوط

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن حضور التاريخ والواقع في الرواية العربية، من خلال قراءة أنماط الرؤية القصصية التاريخية في رواية واحة الغروب للروائي المصري بهاء طاهر، حيث تمثل الرواية درجة عالية من المزج بين الواقع واللاواقع، من خلال رسم شخوص الرواية الذين يتباينون ويتناقضون في كل شيء، الأزمنة، الانتماء، الدين، سمات الشخصية،ومع ذلك يربطهم جميعًا شيء ، وهو يوظف الأحداث التاريخية من عصور مختلفة، أقدمها زمن الإسكندر ورحلته ، وتصل إلى أحداث معاصرة لحياة البطل محمود عبد الظاهر مأمور واحة سيوة في آخر القرن التاسع عشر، في الفترة التالية للثورة العرابية . وقد صاحب السرد التاريخي ، الوصف لمعابد وآثار واحة سيوة ، وكذلك التعريف بالمجتمع السيوي وبعض العادات والتقاليد التي سادت في تلك الفترة من تاريخ الواحة،فترتكز رواية واحة الغروب على فكرة التنوع الثقافي، وتوظيف التاريخ في فترات زمنية متباعدة، وقد تمثل الواقع في الرواية في عدة محاور نقل فيها بهاء طاهر معلومات تاريخية موظفة في بنية سردية اندمج فيها الواقع باللاواقع.

الكلمات المفتاحية:

الرواية ، التاريخ ، واحة الغروب ، بهاء طاهر.

Abestract:

This research aims to reveal the presence of history and reality in the Arabic novel, by reading the patterns of the historical narrative vision in the novel “The Sunset Oasis” by the Egyptian novelist Baha Taher, where the novel represents a high degree of mixing between reality and non-reality, by drawing the characters of the novel who contrast and contradict each other. something, tenses, affiliation, religion, personality traits, yet something connects them all, the writer employs historical events from different eras, the oldest of which is the time of Alexander and his journey, and reaches contemporary events in the life of the hero Mahmoud Abdel Zaher, the commissioner of Siwa Oasis at the end of the nineteenth century, in the period following the Urabi Revolution. The Sunset Oasis novel is based on the idea of cultural diversity, and the employment of history in different time periods. The reality in the novel was represented in several axes in which Baha Taher conveyed historical information employed in a narrative structure in which reality merged with non-reality.

key words:

Novel, history, sunset oasis, Bahaa Taher.

مقدمة:

بهاء طاهر([1]): روائي ومترجم مصري نال الجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠٠٨ عن روايته واحة الغروب. ولد بهاء طاهر في محافظة الجيزة في ١٣ يناير سنة ١٩٣٥.

حصل على ليسانس الآداب في التاريخ عام ١٩٥٦ من جامعة القاهرة ودبلوم الدراسات العليا في الإعلام . شعبة إذاعة وتلفزيون سنة ١٩٧٣. عمل مترجمًا في الهيئة العامة للاستعلامات بين عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧، وعمل مخرجًا للدراما ومذيعًا في إذاعة البرنامج الثاني الذي كان من مؤسسيه حتى عام ١٩٧٥ حيث منع من الكتابة. بعد منعه من الكتابة ترك مصر وسافر في أفريقيا وآسيا حيث عمل مترجما.وعاش في جنيف بين عامي ١٩٨١ و ١٩٩٥ حيث عمل مترجما في الأمم المتحدة عاد بعدها إلى مصر.

حاز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٩٨، حصل على جائزة جوزي بياكيربي الإيطالية سنة ٢٠٠٠ عن خالتي صفية والدير حصل على الجائزة العالمية للرواية العربية عن روايته واحة الغروب.

له من الكتب المنشورة أحد عشر كتابًا: ثلاث مجموعات قصصية هي:

الخطوبة ١٩٧٢ ، بالأمس حلمت بك ١٩٨٤ ، أنا الملك جئت ١٩٨٥.

---

[1]- يراجع سيرة بهاء طاهر الذاتية كما أوردها في مقدمة : خالتي صفية والدير ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ومقدمة أبناء رفاعة ، دار الهلال القاهرة ، ١٩٩٣ ، ويراجع كذلك صفحة بهاء طاهر في:
https://www.abjjad.com/author/٦٨٠٤٨٩١/%D٨%A٨%D٩%٨٧%D٨%A٧%D٨%A١-%D٨%B٧%D٨%A٧%D٩%٨٧%D٨%B١

إضافة إلى أربع روايات هي: شرق النخيل ١٩٨٣، قالت ضحى ١٩٨٥، خالتي صفية والدير ١٩٩١، الحب في المنفي ١٩٩٥.

وكتابان في مجال الرأي والفكر هما: ١٠ مسرحيات مصرية ١٩٨٥ ، أبناء رفاعة، الثقافة والحرية ١٩٩٣

وفي مجال الترجمة كتابان هما: مسرحية فاصل غريب ليوجين أونيل ١٩٧٠ ، رواية ساحر الصحراء لباولو كويلو ١٩٩٦

وقد نشأ في أسرة رقيقة الحال، تعود أصولها إلى الصعيد إلى محافظة الأقصر، وكان الابن الأصغر فيها، أحب القراءة والقصص والحكايات وكان لأمه دور كبير في ذلك، لأنها كانت تملك موهبة في حكاية القصص، كما قال أن أحب اللحظات إليه في فترة الطفولة وهو يستمع إلى أمه تحكي القصص باستغراق كامل وبتفاصيل دقيقة وبلغة البلدة وتعبيراتها.

نبغ في التأليف منذ الصغر ملتحقًا بالمدارس الإلزامية التي تعلم مبادئ القراءة والكتابة فيها، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية والتي كانت أول عهده مع القراءة مع روايات الجيب البوليسية وحكايات هولمز وأرسين لوبين متبادلًا القصص بينه وبين أصحابه، فلم يكن يملك النقود الكافية لشراء كل القصص، وكذا تبادلوا الآراء النقدية واختلفوا فيها مما غذى الروح النقدية عندهم منذ الصغر.

وبعدها إلى مدرسة السعيدية الثانوية التي ضمت أطياف سياسية ودينية متعددة، فكانت بداية تكوين الوعي السياسي عنده، ثم التحق بجامعة القاهرة عام الثورة عام ١٩٥٢، ففرح بالثورة ولكنه عانى وأقرانه من ازدواجية المشاعر التي انتابتهم تجاهها، تجاه التحرر من الإنجليز والملكية والحرب ضدهم من أجل استقلال الوطن، وقانون الإصلاح الزراعي، لكنهم مقتوا

الديكتاتورية التي صاحبتها وحملات الاعتقال والمحاكمات الثورية، ومع معايشته لتلك الظروف تكونت شخصيته الإبداعية، التي ظهرت في رواياته وإنتاجه الأدبي، مستندًا فيها إلى حقائق تاريخية حاول من خلالها تفعيل دور المثقف في الخروج بالوطن من ظلام الاستعمار وبراثنه إلى ضوء الحرية والنهضة الفكرية والاجتماعية.

واحة الغروب ([1]):

رواية بهاء طاهرالحاصلة على الجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠٠٨،، نشرت لدار الشروق عام ٢٠٠٧، وقد طبع منها ٣ طبعات خلال سنة وذاعت شهرتها وخاصة بعد تحويلها لمسلسل تليفزيوني.

ملخص الرواية ([2]):

الزمن التاريخي لواحة الغروب رواية الكاتب الكبير بهاء طاهر هو سنوات ما بعد الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر، عندما اندلعت الثورة كان محمود عبد الظاهر ضابط شرطة برتبة ملازم، كان يتابع أحداثها بفخر وحماس

---

[1]- يراجع موقع
https://www.goodreads.com/book/show/٣٢٤٠٦٩١?from_search=true

[2]- راجع : محمود عبد الوهاب : واحة الغروب رواية بهاء طاهر ، مجلة إبداع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ع ٢.٣، ربيع وصيف ٢٠٠٧ م ، صـ ١٢٨-١٣٣ ويراجع كذلك
https://qafilah.com/ar/%D٩%٨٨%D٨%A٧%D٨%AD%D٨%A٩-%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%BA%D٨%B١%D٩%٨٨%D٨%A٨/ ، و
https://www.ida٢at.com/sunset-osasis-about-post-defeat-weakness/

وقد شهد هزيمتها ودخول قوات الاحتلال مدينة الإسكندرية، وقدم للمحاكمة بتهمة التعاطف مع العصاة المتمردين. تهمة أنكرها فقط للإفلات من العقاب.

يتّجه بهاء طاهر إلى واحة سيوة، إحدى واحات صحراء مصر الغربية، ويغوص في تاريخ الواحة حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، ويفتح لنا نافذة نطل منها على مجتمع شديد التعقّد بحدوده وعاداته وطبقاته، يمثّل مادّة خاماً شديدة الثراء لهذه الرواية. وعبر فصول الرواية، نرى مجتمعاً أنهكته الحدود والأسوار. الحدود العشائرية تقسمه إلى عشيرتين كبيرتين، الشرقيين والغربيين، لم تنقطع بينهما الحروب عقوداً طويلة. وعلى الرغم من الخلاف المزمن بين عشيرتي الواحة، والأحقاد التي تراكمت عبر السنين، تدفعهم الحاجة إلى التوحد حيال خطر أكبر يأتيهم من الخارج. هذا الخطر هو الحكومة ورجالها ومحاولاتها فرض سلطانها عليهم.

تبدأ الرواية حين يصدر قرار تعيين الضابط محمود مأموراً لواحة سيوة. يرسله رؤساؤه إلى هناك لجمع الضرائب التي يرفض أهل الواحة تسليمها. يعرف محمود أية مهمة صعبة تنتظره، ويعرف كذلك أن شكوك رؤسائه في ولائه للنظام كانت سبب اختياره لتلك المهمة. فهو في نظرهم الضابط المتمرد المغضوب عليه بسبب ماضيه في الكفاح الوطني ضد الاستعمار الإنجليزي. هذا الماضي الذي تبرأ منه قبل سنوات حين علم رؤساؤه بموقفه المعادي للإنجليز والحكومة، فوجهوا إليه تهمة الخيانة.

بدأت بهذه الإجابة أزمة محمود مع نفسه. فهو لم يستطع أن يتمسك بمواقفه أمام التهديد، ولكنه في الوقت نفسه لم يستطع أن يسوغ ذلك أو يغفره لنفسه. فظلت إجابته تلك عاراً يحمله معه طول الوقت. وإلى جوار محمود، نجد كاثرين زوجته الإنجليزية، ذات الأصول الأيرلندية، والباحثة في علم الآثار. التقاها حين كانت تزور مصر بعدما انتهى زواجها الأول الفاشل برحيل زوجها

عن الحياة. حين التقيا، كان كلاهما يحاول أن يجمع أشياء مبعثرة في داخله، وجمع بينهما بالإضافة إلى ذلك كراهة كل منهما لما يفعله الاحتلال الإنجليزي في بلديهما، وماضٍ فشل فيه كل منهما في أن يجد نفسه، ويحيا حياة متسقة في ظاهرها وباطنها

كان قرار سفره إلى واحة سيوة للعمل مأمورًا لمركزها أحد توابع الغضب الرسمي عليه باعتباره مذنبًا لم تكتمل أدلة إدانته، وكانت مهمة العمل في الواحة محفوفة بالمخاطر، السفر إليها يستغرق أيامًا في صحراء تداهمها العواصف والحيوانات المفترسة والثعابين والعقارب، والإقامة فيها تعني مواجهة عداء الأهالي المعلن، والذي كثيرًا ما تحول إلى هجوم مسلح على قوات الأمن وإلى اغتيال للعمد وإلى قتل المأمور.

كان أهالي الواحة يكرهون الحكام القادمين من العاصمة لأنهم يرهقونهم بالضرائب، ويحصلونها منهم بسيف القهر، ويعاملونهم بازدراء، حاول محمود التخلص من تلك المهمة، لكن رؤساؤه حذروه من عواقب الاعتراض وهددوه بإحالته إلى محاكمة عسكرية ربما قضت بفصله من الخدمة.

بعد رحلة طويلة في الصحراء، يصل محمود وكاثرين إلى الواحة. يفاجأ محمود بفقر أهلها، ويرى جسامة الضرائب التي تطالبه الحكومة بجمعها منهم، فيكتب لرؤسائه مقترحاً خفضها إلى النصف، ويسعى في أن ينجز مهمته دون العنف الذي ينصحوه به. يحاول كسب ود أهل الواحة واحترامهم. فيذهب إلى صلاة الجمعة في مسجدهم الكبير، ويمشي في الطرق وحيداً بلا حرس ومواكب، ويخرج على رأس مجموعة من الجنود يطارد لصوص البدو، ويحمي الواحة من غاراتهم. لكن ذلك كله لم يفلح في أن يمتص بعضاً من نظرات الكراهية والتوجس التي لم يخطئها محمود وكاثرين، في كل العيون منذ لحظة وصولهما. فمحمود مهما فعل، في نظرهم المأمور مبعوث الحكومة المكلف

جمع ضرائب تثقل كواهلهم، وكاثرين هي المرأة الأجنبية التي تقتحم بلدتهم وتفتش فيها بحثاً عن كنز الواحة الذي خبأه الآباء الأقدمون.

كانت مهمته في الواحة هي حمايتها من غارات البدو، والمحافظة على استمرار السلام الهش بين عشائر الشرقيين والغربيين، وتحصيل ما تفرضه حكومة العاصمة من ضرائب وغرامات، سافر محمود إلى الواحة ومعه زوجته الإيرلندية كاثرين التي جمعت بينها وبينه كراهية الإنجليز. كانت الواحة عند محمود مهمة رسمية حافلة بنذر الشؤم، وإقامة جبرية في منفي بعيدًا عن القاهرة التي عاش فيها سنوات عمره، حيث المقاهي والحانات والجواري والصحف والأحزاب وليالي الإنشاد الديني.

أما الواحة عند كاترين فكانت رحلة في الصحراء تحت سماء حافلة بالنجوم، وفوق رمال تشهد كل يوم تحولات الشمس والقمر، وحيث المكان الذي شهد استقبال الكهنة للإسكندر الأكبر وتتويجه حاكمًا على مصر وابنًا للإله آمون، عشقت كاترين الآثار الفرعونية، من أجلها تعلمت لغات مصر القديمة واللغة اليونانية، وبذلك تمكنت من قراءة النقوش المرسومة على أعمدة المعابد وجدران المقابر،وقد خطرت لها في الواحة فكرة احتمال عثورها على إشارة تقود المؤرخين إلى قبر الإسكندر.

حاولت كاثرين التودد إلى نساء الواحة لكنها كانت تواجه بحائط من التجهم والنفور والريبة، فهي عندهم زوجة المأمور المتغطرس، وهي غريبة وأجنبية، وهي سافرة وهن منتقبات، وهي تقتحم أحياءهن وتنتهك بيوتهن وهي كثيرا ما تمارس أعمالًا سحرية، في خرائب المعابد القديمة لسرقة الكنوز المطمورة، ذهبت كاترين يومًا إلى أحد المعابد فاندفعت من سقفه صخرة كادت أن تقتل صبيًا من الواحة، لولا تعرض جندي الحراسة لها وسقوطها على ساقه،

وهو ما أدى إلى كسرها، تورمت الساق واقترح الممرض بترها، لكن خبراء الطب الشعبي في الواحة اعترضوا وعالجوها بالأعشاب والزيوت والكي.

عالم عالق بين الحرب وقسوة الحياةعلى أرض هذه الواحة المعزولة في قلب الصحراء،يتحدث الأهالي في الواحة لغة خاصة، ولا يعرفون من اللغة العربية إلا كلمات قليلة، لكن تلك الكلمات لم تصنع حوارًا بين الرجال والمأمور، أو بين النساء وزوجته، الوحيد الذي خرج على مقاطعة المأمور هو الشيخ يحيى الذي حصل من العلوم والخبرة بالحياة ما جعله قادرًا على وضع أعراف الواحة وتقاليدها موضع الاعتراض والاستنكار والنقد، ولكن في النهاية الشيخ يحيى، حكيم الواحة وخال مليكة، ينتهي به الحال إلى اعتزال قومه وهجرهم ليعيش آخر أيامه في حجرة صغيرة في بستانه، بعدما يئس منهم، ولم يستطع بعلمه وحكمته أن يوقف القتال المشتعل دوماً بينهم، ولم يستطع حتى أن ينقذ ابنته من الموت.، والوحيدة التي خرجت على إجماع النساء هي مليكة الشابة الذكية الجميلة والموهوبة. التي تزوجت من رجل طاعن في السن، معبد، الشيخ الشرقي، في أول زواج سياسي يجمع بين العشيرتين، أملاً في أن تتوقف الحرب بينهما وما إن مات حتى تحولت إلى أرملة محرم عليها الخروج من البيت خلال فترة الحداد، ذلك لأنها أصبحت غولة يسكن جسدها الموت والخراب. سعت مليكة إلى بيت كاترين للتعبير لها بالإشارة والقبلات والدموع عن إعجابها لكن ساء فهم كاترين للموقف وعنفتها وطردتها مما أكمل الخراب الذي يسكن نفس مليكة فقتلت نفسها.

زارت كاترين في الواحة أختها فيونا التي كانت تعاني من أزمة ربوية حادة، وقد ظنت أنها قد تجد شفاءها في هواء الواحة الجاف، ثم انضم إلى قوات الأمن اليوزباشي وصفي، الذي تبين أنه يطمع في إزاحة المأمور والقفز إلى منصبه، والذي كان يوافي القيادات الإنجليزية في العاصمة بتقارير سرية

عن أحوال الواحة ومستوى أداء المأمور، ضاق محمود بالإنجليز والأهالي وزوجته ووصل إلى النهاية حين يذهب مندفعاً إلى المعبد لينسفه بالديناميت. فالمعبد القديم رمز للماضي الذي يحاصر محمود بذكريات أليمة تبعث في روحه الخزي والانكسار، وهو الذي سبّب حجرٌ هوى من مدخله كسرَ ساق الشاويش إبراهيم وإصابته بالعرج حتى آخر عمره. وهو الذي ألهت نقوش جدرانه كاثرين عن الاهتمام بأختها المريضة التي تعيش آخر أيامها في الدنيا. وهو المكان الذي أحبته مليكة ووجدت فيه جمالاً مس روحها، فأصبحت ترى الدنيا بعيون مختلفة عن تلك التي يراها بها قومها. وهو مجد الأجداد الذي يرى الضابط وصفي أنه لا يمكن بناء مثله، إلا حين تصبح البلاد خاضعة للإنجليز. تتساقط حجارة المعبد، ويسقط محمود تحتها، وتلقى روحه السكينة التي كانت تفتقدها.

مرجعيات الواقع ، مرجعية الرواية .

مقدمة

أنماط الرؤية القصصية :

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن نمط من أنماط الرؤية القصصية في الرواية عبر قراءة رواية واحة الغروب لبهاء طاهر قراءة معتمدة على المرجعية الواقعية الثقافية التي تستند عليها الرواية، فقد استلهم بهاء طاهر شخصية البطل في روايته من شخصية حقيقية عبر توظيف ظروف وصراعات حياته الواقعية في تخييل لاواقعي إبداعي في نص الرواية رغم الاختلاف الموضوعي بين علم التاريخ والرواية كما " يتوزع علم التاريخ والرواية على موضوعين مختلفين، يستنطق الأول الماضي ويسائل الثاني الحاضر، وينتهيان معًا إلى عبرة وحكاية، بيد أن استقرار الطرفين، منذ القرن التاسع عشر، في حقلين متغايرين لم يمنع عنهما الحوار، ولم ينكر العلاقة بين التاريخ والإبداع الأدبي"([1]).

وقد فطن الأدباء والكتاب والمبدعون للتلاقي بين الطرفين فأصبح "التاريخ بكل مكوناته ورموزه وبخاصة التاريخ العربي الحديث الطازج، أصبح مادة أساسية في بناء كثير من الروايات العربية ، مما يضفي عليها طابع الحيوية والتفاعل مع الأبعاد الثقافية والمعرفية" ([2])،

لذا يجب على الناقد الذي يقوم بقراءة النص السردي بوجه عام، والنص السردي الذي يستثمر التاريخ بشكل خاص قراءة منصفة، يجب مساءلته من جانبين جانبه الفني الإبداعي والخيالي الذي تظهر فيه تقنياته وخصائصه،

---

[1]– بهاء طاهر واحة الغروب صـ ٩

[2]– محمد برادة: الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع,.ص ٧٨برادة، محمد: الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع، مركز دراسات الوحدة العربية، جامعة الأمم المتحدة، ١٩٨٧

وجانبه المرجعي الذي يكشف عن روافده الثقافية والاجتماعية والتاريخية والواقعية، ثم الكشف عن مواطن التلاقي بين الجانبين، في جميع مكونات النص من أشخاص وأحداث وزمان ومكان والتي تستقى من مصدر واقعي أو تاريخي، وهذا يحدد انتماء النص إلى نوع بعينه، فنجد الواقعي، والتاريخي والديني وغيرها.

إذن يزخر النص السردي التاريخي بجدلية وصراع بين ثنائية الواقع واللا واقع بين ما هو حقيقي وما هو خيالي، وصارت تنحصر وظيفة الرواية في هذه الأنواع في إعادة نقل الوقائع التاريخية الواقعية في صورة تخييلية مبدعة، تنقل فيها الرواية الثقافة في صياغة لغوية أدبية فنية جمالية تختلف عن صياغة التاريخ البراغماتية، من خلال شخصيات حقيقية عايشت أحداثًا لها خصوصية يرى فيها الروائي مادة خام يستثمرها لينتج نصا مبدعا. فلغة السرد: "تفوح برائحة السياق والسياقات التي عاشت فيها حياتها الاجتماعية بحدة وكثافة؛ إن الكلمات والأشكال جميعها مسكونة بالنيات " [١].

تنوعت الرواية التاريخية بين الرواية التي تعرض التاريخ عرضًا إخباريًا تعليميا أو ترفيهيًا، وبين الرواية التاريخية التي تتناول قضايا الحياة والمجتمع في فترات تاريخية تتقارب أو تتباعد من زمن كتابة الرواية، فحاولت الرواية التاريخية مثل رواية واحة الغروب التي بين أيدينا نقل الصراع الإنساني من منطلق سردي تاريخي يكون جزءا من الواقع في إبداع تخييلي وفني في آن واحد " فالهيمنة الفنية على التاريخ تعني قدرة المبدع على تعميم خصوصية الحاضر المباشر، بإيلاء الأهمية الملموسة التاريخية للزمان والمكان، والظروف الاجتماعية، والنظرة إلى الإنسان بوصفه نتاج نفسه ونتاج نشاطه في التاريخ،

[١]– تزفيتان تودوروف، باختين المبدأ الحواري، تر: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ١٩٩٦، صـ٢١٥.

مما يؤدي بالضرورة إلى اعتبار فكرة التقدم الإنساني قانونًا تاريخيًا وفلسفيًا محسوسًا"([1])، هذا التقدم الذي يرتبط بموقع الذات في المجتمع والتاريخ وإمكانية تجدد التاريخ وإعادته لنفسه مرات ومرات.

لكن الروائي ليس مؤرخًا ولا يقوم بدور المؤرخ فوظيفته إبداعية والتاريخ مجرد مادة عنده يستعملها في التخييل الذي هو مناط الأهمية بالدرجة الأولى عند الروائي ف" الخيال عند الروائي مقدس والحقيقة مجال للانتهاك"([2])، ومنها ينتهك الروائي الأحداث التاريخية محاولًا تصحيح مسار كتابة التاريخ وتدوينه الذي قد يتأثر بعدة عوامل أهمها موازين القوى فالتاريخ يسجله ويكتبه من هو في موقع القوة وهو "علم سلطوي وعن السلطة، يدور حول مقولتين سلطويتين، هما الانتصار والهزيمة، وينتج ويعاد إنتاجه في مؤسسات سلطوية"([3]). ولذلك يرى الروائي أن مهمته في نقل التاريخ عن نصرة المظلومين، وأن يكون صوتًا لمن لا صوت له وأن ينقل معاناة الضعفاء الذين لم يلتفت لهم التاريخ في بعض الأوقات لأن السلطة ليست في أيديهم لذا يختار الروائي تاريخ المهمشين وهو بذلك يصحح دور المؤرخ " يقوم الروائي العربي بتصحيح ما جاء به المؤرخ وبذكر ما امتنع عن قوله، مؤكدًا الكتابة الروائية (علم التاريخ الوحيد) أو كتابة موضوعية تسائل ما جرى، دون حذف أو إضافة. وهذه الكتابة الموضوعية، في

---

[1]– الرواية والتاريخ دراسة في مدارات الشرق عبد الرزاق عيد ومحمد جمال باروت، دار الحوار للنشر والتوزيع– سورية، د.ت ، صـ ٧

[2]– طارق علي ، تأملات في الرواية والتاريخ ، دار الكتب القطرية ، (د.ط) ٢٠٠٥م ،صـ ٣٠

[3]– فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية،ص ٨٣دراج، في.صل: الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية،
االمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١،٢٠٠٤

فضاء كتابي مشغول بالتوهم والاختراع، تبرر الاحتفال بالإبداع الروائي، الذي تطور في شرط مقيد يهمش الموضوعية والإبداع معًا"([1]).

كما أن الروائي يلتفت لجوانب الصراع الروحي ولا يهتم بالحدث في حيثيته ولكن بالتأثير الناتج عنه، فهو لا يهتم بالحروب ومن غلب وانتصر فيها بقدر اهتمامه بمن قتل ومن أسر ومن تشرد، وما سرق وما احترق وما هدم وما ضاع جراء تلك الحروب هو يهتم بالجانب الروحي للتاريخ أو لنقل بروح التاريخ وليس بجسده،يهتم بما تحدثه حوادث التاريخ في نفس الإنسان فـ" المعرفة الإنسانية التي لا تنبثق عن النشاط العقلي بل عن الحياة الروحية هي التي يهتم بها الروائي" [2]، وهو يتوسل بسجل التاريخ لينقل الواقع في السرد.

إذن وظيفة الرواية التاريخية مغايرة لوظيفة كتب التاريخ فالرواية " لا تنقل التاريخ بحرفيته بقدر ما تصور رؤية الفنان له،وتوظيفه لهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه أو موقف من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة له" [3] ، إن الروائي لا ينقل التاريخ بل ينقل رؤيته ومواقفه في صورة التاريخ والحدث والواقع.

مرجعية الواقع في رواية واحة الغروب:

ترتكز رواية واحة الغروب على فكرة التنوع الثقافي، وتوظيف التاريخ في فترات زمنية متباعدة، من خلال شخوص الرواية الذين يختلفون في كل شيء،

---

[1]– فيصل دراج الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء –المغرب ، ط١٢٠٠٤ ، صـ ٦

[2]– روبرت همفري :تيارالوعي،.ص ٢٤١٦ همفري، روبرت: تيار الوعي، ت: محمود الربيعي، دار المعارف،القاهرة، .١٩٧٥

[3]– عبد الحميد عبد العظيم القط ، بناء الرواية في الأدب المصري الحديث ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص٣٣

ويلتقون في شيء وقد تمثل التاريخ، في الرواية في عدة محاور نقل فيها بهاء طاهر معلومات تاريخية موظفة في بنية سردية، هي الثورة العرابية، الواحة وتاريخها وملامحها الجغرافية والاجتماعية، وقد ذكر بهاء طاهر في نهاية روايته واحة الغروب المصادر التي رجع إليها في معلوماته عن تاريخ الواحة وملامحها وآثارها،وعن محمود عزمي وعن الثورة العرابية وعن الإسكندر الأكبر والجدل الثائر حول مكان ضريحه المفقود، ذكر المصادر في نهاية الرواية.

يتمثل الإبداع عند بهاء طاهر في قدرته على المزج بين الواقع واللاواقع، لأن اللاواقع " لا يستطيع أن يجمع بين بعدي اللغة والإشارة المرجعية في لحظة واحدة، إذ يجب على واحدة منهما أن تتخلى عن مكان الصدارة، فإما أن تبرز اللغة فتسود الأدبية، أو ما يسميه تودوروف بالحرفية، أي تركيز الضوء على عمليات الكتابة نفسها، وتتألق الشاعرية، وإما أن تكتفي اللغة بوظيفتها التقريرية المألوفة بوصفها أداة توصيل وإخبار فيغلب التصور الخارجي ولا نلتفت إلى الحضور المادي لطبيعتها المشكلة للنص لكن يبقى مع ذلك، أن كل نص أدبي هو بالضرورة مجال صراع بين البعدين، ومن ثم تميل الأدبية أي خصوصية الخطاب الأدبي، إلى التحقق كلما ساد بعد اللغة، كما تميل إلى الزوال كلما ساد البعد التصويري أو المرجعي"([1]). وقد وجب على بهاء طاهر أن يستثمر التاريخ ويحافظ في الوقت نفسه على الأدبية، وهذا ما ظهر بوضوح في الخصائص الفنية لروايته التي اعتمدت تداخل الأصوات الساردة مع مزج بين الأحداث التاريخية والحقب الزمنية وبين بنية السرد.

[1]– ١٠١٠ ريكاردو، نقلا عن محمد علي الكردي،إشكالية الكتابة في الرواية الجديدة،صـ٨٠،٧٩.
الكردي، محمد علي:إ.شكالية الكتابة في الرواية الجديدة، ف.صول، المجلد
الحادي ع.شر، العدد الرابع، الجزء الأول،.شتاء ١٩٩٣

ويلاحظ كذلك أن توظيف التاريخ والحقيقي عند بهاء طاهر فيه صراع بين ما هو كائن بالفعل وبين ما يرجى أن يكون ؛ لأنه في الواقع "يشكل المرجعي عادة حيز الواقع الوقائعي الحقيقي، في حين يشكل الخيالي حيز الرغبة، أو حيز الصورة المتخيلة في الخيال، والذي تنزع الرغبة إلى تحقيقه، أي إلى جعله واقعًا روائيًا حقيقيًا"([1])، فهناك محمود الساخط على التاريخ الكاره له الذي يراه لقيطًا ويكره آثاره ومعالمه ورموزه، وهناك كاثرين التي تمجد التاريخ وتمجد الإسكندر وترى في سيرته بهاء، وتبحث عن مجد شخصي في الكشف عن مكان مقبرته، رغم تاريخه الدموي وديكتاتوريته وتوسيع امبراطوريته بالسيف وسفك الدماء، لكنها لا تبالي بكل هذا، وهناك الشيخ يحيى كاره الواحة وتقاليدها والخرافات التي اخترعها الأسلاف، وسار على نهجها الأحفاد دون وعي، فنرى بهاء طاهر ينقل التاريخ والواقع في وضع متخيل يضيء النقاط المعتمة ويشدد على السلبيات، آملًا أن تقود هذه الإضاءة إلى تصحيح المفاهيم، أو ربما أراد فقط نقل رؤيته لتلك الأحداث وذلك الواقع ومشاركتها مع المتلقي، ليحاول أن يغير بتلك الإضاءات وجهات النظر ناحية بعض الشخصيات التاريخية والأساطير حولها، وكذلك بعض الأماكن مثل الواحة ومجتمعها، ليقوم الإبداع الأدبي بوظيفته الحقيقية وهي محاولة تغيير الواقع.

محمود عزمي (مأمور الواحة في نهاية القرن التاسع عشر):

يوظف الكاتب بهاء طاهر في رواية واحة الغروب سيرة البطل الذاتية في سيرة جديدة مبدعة، فهو لم يأخذ من سيرة البطل التي ذكر أنه لم يجد معلومات موثقة عنها في التاريخ، فأخذ منها حادثة المعبد، وبنى حولها سيرة تخييلية؛ ليعيد قراءة الذات والكشف عن مكنوناتها بالمزج بين الواقع واللاواقع،

[1]– ١٩١٩ يمنى العيد: بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب،.ص ٩٤العيد، يمنى: فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دارالآداب، ط ١، بيروت، ١٩٩٨

وهنا يظهر إبداع المنشئ وقدرته الأدبية، كيف يستطيع أن يمزج بين الأحداث الواقعية الثابتة تاريخيا وبين الخيال والإبداع دون إجحاف لأي من الجانبين.

تعرض الرواية سيرة لحياة (محمود عبد الظاهر) أو (محمود عزمي)، لكن الكاتب يسجل في افتتاحية الرواية أن مأمور الواحة الذي تحكى قصته هنا اسمه الحقيقي محمود عزمي يقول: " الاسم الحقيقي لمأمور واحة سيوة في أواخر القرن التاسع عشر هو محمود عزمي وإليه ينسب عمل ترك أثرًا باقيًا في الواحة سيتعرف عليه القارئ في موضعه من الرواية"([1]). إذن فالرواية مبنية على أساس شخصية حقيقية عاشت ووجدت بالفعل، لكن السيرة والأحداث المتناولة في الرواية، سيرة تخييلية من إبداع الكاتب إذ لا توجد معلومات تاريخية موثقة عن حياة المأمور يقول بهاء طاهر " لا توجد أية معلومات تاريخية منشورة عن هذا المأمور أو عن سيرة حياته"([2]).

تتجلى براعة بهاء طاهر هنا في طريقة وكيفية توظيف التاريخ خلال السرد والتخييل، رغم عدم وجود معلومات موثقة تاريخية عن شخصية البطل كما قال بهاء طاهر في مقدمة الرواية، وهو يشير في خاتمة الرواية أن حادثة هدم المعبد وردت في بعض المصادر وأن حجارة المعبد استخدمت لبناء سلم جديدة لقسم الشرطة وترميم بيت المأمور، يقول: "ذكرت في مدخل الرواية أني لم أجد أي معلومات عن حياة المأمور الحقيقي(محمود عزمي) أو عن مصيره بعد حادثة المعبد، لكن تجدر الإشارة إلى أنه يقال إن حجارة المعبد استخدمت في بناء سلم جديد لقسم الشرطة وفي ترميم مسكن مأمور الواحة"([3])، وقد وظف

---

[1]– بهاء طاهر :رواية واحة الغروب ، دار الشروق ، القاهرة – مصر ، ط١ ٢٠٠٧ م ، ص٨ في تنويه في مقدمة الرواية

[2] – السابق ، الصفحة نفسها

[3]– السابق صـ ٣٤٦

بهاء طاهر هذه المعلومة الواقعية في أثناء السرد عند ذكره لزيارة محمود وزوجته كاثرين لمعبد أم عبيدة يقول: "وأملت أن تغير رأيها وتعدل عن الزيارة، لكنها قالت: لا يوجد يا محمود ما يدعو للمزاح في هذه المسألة، لابد من عمل شيء لإصلاح هذه الدرجات أو لتغييرها أنت الرئيس هنا، فضحكت: رئيس فعلًا ! رئيس تأتيه التعليمات من القاهرة كل عدة أسابيع مع قوافل الجمال، ولا يرد على رسائله أو طلباته أحد! سلالم قسم الشرطة حالتها أسوأ، كاد بعض الجنود أن تكسر رقابهم فعلًا وهم يسقطون منها"([1]). وما عدا ذلك من أحداث تتعلق بالثورة العرابية واشتراك (محمود) في أحداثها ونقله على إثر ذلك إلى الواحة، هي من وحي إبداع وخيال الكاتب.

الثورة العرابية:

جاء ذكر الثورة العرابية في الرواية عن طريق المأمور محمود عبدالظاهر والذي شارك فيها، أو يدعي مشاركته فيها ولكنه تنصل من الثورة ومن أتباعها ووصف أصحابها بالبغاة ليحافظ على وظيفته وهو في قرارة نفسه يحتقر فعله هذا ويحتقر ادعاءه الانتماء للحركة الوطنية ومقاومة الإنجليز حتى أمام زوجته ويكره تقمصه دور الوطني المغضوب عليه والمنقول إلى واحة يحف رحلته فيها الموت كعقاب له من السلطة لموقفه الوطني يقول:" أتباهى أمام نفسي بماض بطولي وأتعمد نسيان لحظة الخزي، أعتبر نفسي في السلطة مظلومًا وشهيدًا ولعلي أسوأ الجميع. الضابط المتمرد المغضوب عليه بسبب ماضيه الوطني أيام الثورة! أعجبني الدور فصدقت نفسي. لعلي تعمدت أيضًا أن أنقل هذه الأسطورة لكاثرين من أول أيام علاقتنا وأحاديثنا العاطفية الممتزجة بالشجن عما حدث لأيرلندا ومصر، ... ولكن ماذا فعلت أنت في الثورة؟ أطلقت

[1]- واحة الغروب بهاء طاهر صـ ١٠١

النار على البدو بعد أن أطلقوا هم النار عليك؟ ما الذي كان يمكن لأي إنسان آخر أن يفعله غير ذلك؟ ... أصابتك الحرب برصاصة؟ لم تأتك الرصاصة وأنت تحارب العدو الذي يغزو بلدك([1])، محمود شخصية صادقة مع نفسها، شخصية متشائمة، دفعته الظروف والأحداث ليكون شخصًا يكره نفسه، ويكره كل شيء يكره محمود الاحتلال والاستعباد والتجبر والطغيان، ويكره الملكية والخديوي والأتراك والشراكسة:" من هم بالضبط أجدادك المصريون الذين تدرس آثارهم يا حضرة اليوزباشي الشركسي الأشقر؟ قابلت أثناء الثورة قلة من شراكسة طيبين يحبون مصر كوطن لهم، لكن معظم الشراكسة كانوا يعتبرون أنفسهم السادة وتآمروا أكثر من مرة لقتل عرابي الفلاح وفرحوا لهزيمته مثلما تفرح أنت إذن فيم تهمك آثار أجداد هؤلاء الفلاحين الذين تريد أن تسترد مجدهم؟

ربما تقصد بالذات الفراعنة! ربما تراهم أسلافك الأسياد الذين حكموا عبيدًا من المصريين، ظللتم أنتم أيضًا سادة في حضن السادة الأتراك وعندما ثار عليكم العبيد استعنتم عليهم بسادة آخرين من الإنجليز فهزمتوهم وبقيتم بعدها سادة أيضًا، وأنا؟ ماذا اعتبرت الثوار؟ قلت في التحقيق إنهم بغاة، فما الفرق بيني وبينك؟ لكم أكرهني!"([2]).

يكره محمود في نفسه انصياعه للضعف البشري، يكره خوفه على المنصب، ومميزاته، وخوفه من السجن والتشرد في سبيل قضية وطنه مثلما فعل غيره، كم كان يتمنى أن يفعل وكم كره نفسه عندما جبن . و"بهاء طاهر لا يهرب من مواجهة قبح الحاضر عندما يعود بنا وبالقارئ إلى زمنية التاريخ الماضي عندما ينحت بإتقان تشكيلي وشاعري حزين وأسيان نموذجه الروائي الاتكالي الإنساني ضابط البوليس المصري (محمود عبدالظاهر) الذي مسته

[1]- السابق صـ ١٤٨

[2]- السابق صـ ٢٦٣

وشكلت رجولته وشبابه وكونت رؤيته السياسية الوطنية وثقافته العابرة أحداث ووقائع مجد صعود الثورة العرابية وفي الوقت نفسه انكسارها وهزيمتها وهزيمة مصر وأيضًا هزيمته الخاصة الحياتية السرية وأحدثت شرخًا وانفصامًا في مكونات شخصية وأدب لخبرته التراجيدية وأيضًا شكلت مصيره وجعلته وبتجسيد روائي مهيبًا يعاني من سؤال حياته الصعب (هل خان)؟ هل تراجع؟ هل خاف على مستقبله في جهاد الأمن"([1]).

وقد نجح بهاء طاهر ببراعته الأدبية في مزج الأحداث الواقعية التاريخية التي استقاها من المراجع التي ذكرها في توظيف ذكر تلك الأحداث في أحداث الرواية وخواطر محمود عبد الظاهر وموقفه من نفسه ومن العالم فيظهر التاريخ في الأحداث مع ذكريات محمود مع صديقه طلعت والثورة العرابية ويظهر أول مرة في قوله: "ألم تنفذوا الأوامر لكي يسقط عرابي الذي يعصي أفندينا الخديو ويخرب البلد؟"([2])

وكأنه يريدنا أن نعيش مع محمود أحداث الثورة كأنه يستحضر لنفسه ولقارئه المشهد الذي لم يعاصره في ذهن محمود ونفسه الخربة التي خربتها رؤية التناقضات والخيانة وإجباره لنفسه بطمع الإنسان وأمله الدنيوي على أن يتخلى عن الشجاعة والمبادئ ويساير الركب، يقول رأيت بأم عيني خيانة عرابي (الولس) ليستحضر القارئ مقولة (الولس كسر عرابي) والتي جرت مجرى الأمثال([3]).

---

[1]– عبد الرحمن أبو عوف : نبل البطل المهزوم في واحة الغروب ، الرواية قضايا وآفاق الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ع٢ ٢٠٠٩ ، صـ ٦٣.

[2]– بهاء طاهر واحة الغروب صـ ٥١.

[3]– يراجع عبدالرحمن الرافعي: الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي، مكتبة النهضة المصرية– القاهرة – مصر، ط٢ ، ١٩٤٩ م ، صـ ٤٣٢ وما بعدها

ونرى الانسجام والاندماج بين الواقع والمتخيل يقول محمود: "رأيت بعيني الولس الذي كسر عرابي ثم رأيت الولس الأكبر بعد أن كسروه، جنب بيتي بالضبط، في الميدان الذي شهد المجد والفرح وعرابي فوق حصانه شاهرًا سيفه يعنف الخديو الذي لطالما أذلهم لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا ووالله الذي لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم، والناس يتجمعون وافدين من الشوارع والحواري يتعانقون على غير معرفة وفي عيونهم دموع الفرح يوم عيد في المحروسة"([1]).

كما يستحضر معركة التل الكبير وما دار فيها فيكمل حديث نفسه متابعًا: "وفي المكان نفسه بعد سنة لا غير، رأيت العربات المذهبة تجرها خيول مطهمة تتهادى واحدة بعد أخرى على الميدان الفسيح، تقل كبار رجال البلد، الباشوات والبكوات، نواب البرلمان الذين كانوا يلقون الخطب الملتهبة ضد الإنجليز أيام الهوجة، رأيتهم هم أنفسهم يترجلون بجلال من عرباتهم، بثيابهم المطرزة ونياشينهم المذهبة لينضموا إلى الخديو في منصته وهو يستعرض جيش الاحتلال وعلى يمينه الأميرالالي سيمور الذي دمرت مدافع أسطوله الإسكندرية وعلى يساره الجنرال ولسلي الذي أباد بمعونة الخونة جيشنا في التل الكبير، وأقرأ بعد ذلك بأيام أن هؤلاء البكوات والبشوات جمعوا بينهم مبلغًا كبيرًا من المال وقدموا به هدايا معتبرة لسيمور وولسلي، ويومها بكيت بلدي ونفسي وتسألني كاثرين ما هي أزمتي؟"([2])

يحاول بهاء طاهر معايشة أحداث الثورة العرابية تلك الفترة البعيدة عنا من تاريخ مصر، في محاولة لتقريبها لنا، ومحاولة لاستجلاء مكنونات النفس، نفس مثل نفس محمود التي يحدثها ويسترجع معها تلك الأحداث، وعله يحاول

[1]- بهاء طاهر واحة الغروب صـ ٤٧ ، ٤٨

[2]- واحة الغروب صـ ٤٨

مساءلة التاريخ أيضًا لمَ تموت الثورات؟ لم يخان القائد الذي يدافع عن حقوق المظلومين والضعفاء؟ هل تموت بسبب هؤلاء أمثال محمود؟ هل يحاول محمود تبرئة نفسه ومن عاصره؟ هل يحاول بهاء طاهر التماس الأعذار لمن عايشوا الثورات وتركوها لتموت مثل الثورة العرابية ليلتمس العذر لنفسه وللمثقف المصري في كل العصور، من يتخاذل في اللحظات الحاسمة مثل محمود، يلتمس ذاك العذر بنقل وقائع تاريخية([1])، مثل تقديم الهدايا للقادة الإنجليز من قبل النواب الذين لطالما خطبوا لمجد الثورة والثوار، ويقول الذنب ذنبهم، هم من قتلوا الثورات بتخاذلهم وخيانتهم والسعي وراء مصالحهم الفردية وركوبهم للموجات والسير مع التيار ربما!

مثل الكاتب في محمود وصديقه طلعت التخاذل والتشتت والتذبذب، هم يحاربون ولكن من العدو؟ هل يحاربون الإنجليز والخديوي الموالي لهم أم يتلقون الأوامر منهم فهم يعملون تحت إمرتهم يقول: "بدأ طلعت يضحك ضحكات قصيرة أشبه بالشهقات وهو ينظر نحوي قائلًا: سمعت؟ هيا بنا يا محمود! فلنرجع إلى القسم! فلنرجع إلى البيت! هل نعصي أوامر رئيسنا سعادة المحافظ؟ نعصي أوامر مولانا الخديوي؟ مولانا الأميرالاي سيمور؟ فلنرجع إلى البيت!"([2])، يرى محمود أن الحرب الحقيقية لابد أن تكون ضد الإنجليز، فهو يكرههم لاحتلالهم لبلده وحكمهم إياها بالقمع وسرقتهم لخيراتها وقد ظهر ذلك في حديثه مع المستر هارفي الذي أخبره بخبر نقله للواحة بدعوى ترقيته، المحتل محتال يغتصب الأرض بدعوى نشر العدل والسلام والتحضر في البلدان المتخلفة، بدعوى نزع السلاح والحفاظ على الأمن، كما يفعلون بمحمود ينقلونه عقابًا له على تأييده للثورة العرابية ولكن بدعوى الترقية والتي لا يمكن رفضها.

---

[1]- ينظر الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي صـ ٤٥٥ وما بعدها

[2]- بهاء طاهر واحة الغروب صـ ٥١

إذن يظهر بوضوح توظيف بهاء طاهر لذكر الثورة العرابية أو بالأحرى ذكر فشلها بسبب الخيانة (الولس هزم عرابي)، ومثل ذلك في عدة نماذج هناك محمود وموقفه المتخبط ونفسه الخربة الذي يتساءل دومًا عن الخيانة:" أسأل نفسي طول الوقت عن الخيانة. سألت نفسي كثيرًا:لماذا خان الباشوات والكبار الذين يملكون كل شيء؟، ولماذا يدفع الصغار دائمًا الثمن – يموتون في الحرب ويسجنون في الهزيمة بينما يظل الكبار أحرارًا وكبارًا؟ ولماذا يخون الصغار أيضًا؟ لماذا خان الضابط يوسف خنفس جيش بلده في التل الكبير وقاد الإنجليز ليغدروا به ويفتكوا به ليلًا؟ كيف كان يفكر وهو يرى مدافع الإنجليز تحصد إخوانه ورفاق سلاحه الذين كان يأكل معهم وينام معهم ويضحك معهم؟"([1])، وكأنه يتساءل على لسان محمود في كل وقت وكل عصر، لماذا يخون بعضنا البعض الكبار يخونون لأنهم يملكون كل شيء ليحافظوا على ما يملكونه، ووفاءً لعهود أسيادهم من الطغاة، إذن ماذا عن الصغار مصيرهم الموت والهلاك فلم يخونون؟ لم لا يموتون ويهلكون في شرف ربما يحيي غيرهم، ربما يدافع هذا الشرف عنهم وتبعث المروءة والشجاعة الأمل فيمن بعدهم، محمود نفسه خان كذب على نفسه حين سئل:" سؤال: هل كنت تؤيد أحمد عرابي وزمرته؟

جواب: بل كنت من الساخطين على أفعال البغاة." ([2])

وهناك طلعت الذي خانه وخان الثورة وكذب في التحقيق ليحصل على الألقاب والمناصب وعقد الصفقات مع العدو خالف كذب عليه في وجهه وأمامه ووافق المأمور الإيطالي يقول محمود عن طلعت:" أخرسني ما قاله أيد أمامي ودون أي تردد كل كلمة كتبها المأمور الإيطالي: أنا الذي بدأت بإطلاق النار

[1]- السابق صـ ٥٥

[2]- السابق صـ١٥٠.

على العربان دون سبب وحاول هو أن يمنعني، ... وكان هذا كافيًا ليؤيد اتهام المأمور لي بالتغيب عن العمل دون عذر أثناء الحريق. وعندما سأله المحقق إن كان قد سمع ما يدل على موافقتي على أفعال العصاة ولكنه لم يسمع مني ما يدل على تأييدي للحضرة الخديوية! أدركت أنهعقد صفقة مع المأمور الإيطالي ومع رؤسائه في الإسكندرية"([1]).

ينقل لنا بهاء طاهر عبر رؤيته الإبداعية للتفاصيل والأحداث الواقعية، لماذا تكون النتيجة هي الهزيمة، هل بسبب الكبار أم بسبب الصغار، أم الظروف أم الجميع؟ هل بسبب أنانية البعض وتشبثهم بالمناصب ومكاسبها كما فعل طلعت أم تخاذل وجبن الصغار والشعب كله، أم أن الحماس الذي يلازم الثورات ليس حقيقيًا وإنما يكون وقتيًا لا ينبع من عقائد راسخة تعين الثائرين ليمضوا قدمًا لتحقيق أهدافهم؟: " ولكنه لم يكذب على نفسه، كان كل حماسه للثورة أيام الإسكندرية مجرد نزوة وحماسي أنا أيضًا، وحماس البلد كله – مر كنزوة طيش عابرة أفقنا من رعونتها بالهزيمة"([2])

هناك العبيد الذين يحبون العبودية ويتشبثون بها ويحبون أن يكونوا أتباعًا يقنعون بما يلقيه لهم الأسياد ويوهموا أنفسهم أنهم أسياد في ظل هذا الذل مثل اليوزباشي وصفي نيازي صاحب الأصول الشركسية الذي يزدري عرابي والثورة العرابية ويحب الإنجليز ويمجدهم ويتضح ذلك في حواره مع محمود يقول محمود:" – يبدو أن الخديوي الشاب يختلف عن أبيه، يبدو أنه لا يحب الإنجليز كثيرًا،

– سيحبهم! كان يتكلم بثقة كبيرة فسألته:

–كيف؟

[1]–السابق صـ ١٤٩.

[2]– السابق صـ ١٥٠

- حكومتنا لا تستغني عن الإنجليز نحن نحتاج إليهم
- قلت باسمًا لكنك في تلك الليلة كنت تؤكد عظمة أجدادنا المصريين وأنت تمدح آثارهم، ألا يستطيع الأحفاد أن يصلحوا مثل أجدادهم لحكم البلد؟
- ليس الآن لابد أن نتعلم أولًا الكثير من الإنجليز، انظر سعادتك حتى آثار المصريين وعظمتهم يكشفها لنا الإنجليز ونحن لا ندري عنهم شيئًا، كادت مسز كاثرين تضحي بحياتها من أجل العلم، فما الذي فعله بها الأغبياء الذين أرادت أن تخدمهم؟،.. أردت أن أقول إن فتنة العصاة عطلتنا عن التقدم، لابد أن سعادتك بنفسك رأيت الفوضى التي عاشتها البلد في تلك الأيام والتي حدثني والدي عنها.
- يعني باختصار أنت ترى أن العرابيين أجرموا في حق مصر لأنهم أرادوا أن يحكم أهل البلد بلدهم، مط شفتيه – يقصد وصفي – بازدراء وقال: هذا هو الداء الذي يجر الخراب! عندما يتدخل العوام في الحكم تأتي الفوضى والضعف، قال محمود: " عرابي باشا أشرف من عشرة خديويين مجتمعين، والبكباشي محمد عبيد أشرف من كل الخديويين والباشوات الخونة الذين باعونا للإنجليز"([1]).

في لحظة شجاعة وصدق يجاهد محمود أن يقتنص سلاما مؤقتا لنفسه وأن يدفع الحنق والغيظ من داخله، على اليوزباشي الشركسي الكاره للثورة والثوار والمحب للاحتلال والأسياد، كما يظهر بهاء طاهر من خلال هذه اللحظة موقف بطل روايته الحقيقي من الثورة، ولكن محمود لا يقنع بذلك الموقف ويراها شجاعة في غير موضعها .

[1]- واحة الغروب صـ ٣١٨

كما يستعين الروائي في تشكيل الأحداث وذكر التفاصيل، ببعض الأعلام الذين شاركوا بالفعل في الثورة سلباً أو إيجابًا يقول محمود عن خيانة سلطان باشا للعرابيين([1]):" كنت هناك في بيت سلطان باشا رئيس النواب مع اليوزباشي سعيد والملازم طلعت نحرس الاجتماع، كانت مصر كلها هناك كنت قريبًا ورأيت الضابط الفلاح الوسيم طويل القامة يقف محتقن الوجه وعضلات وجهه ترتجف وهو يشهر سيفه"([2]). كان محمود هناك هو وطلعت وسعيد والشهيد الشهير محمد عبيد الذي استشهد دفاعًا عن الثورة هو ومن معه كانوا جميعًا كانت هناك كل الألوان القائد عرابي والخونة سلطان باشا والنواب والثوار محمد عبيد ومن معه ومحمود الثائر الجبان المتقهقر، وطلعت من يركب الموجة جميعهم شاركوا في الثورة وجميعهم شاركوا في الهزيمة.

تظهر فيونا أخت كاثرين زوجة محمود، والتي تشارك محمود في كرهها للاحتلال والإنجليز كرهًا مغايرًا لموقف أختها كاثرين والتي تكره الاحتلال كذلك وهذا ما جمع بينها وبين محمود، تكرهه عندما مس بلدها ومقاطعتها، لكنها لا تجد شرًا في مذابح الإسكندر، ويظهر في شخصية فيونا اختلاف منظور الناس بتوجهاتهم المختلفة ناحية الثورات والاحتلال، تقول كاثرين في حوار جمع بينها ومحمود وفيونا واليوزباشي وصفي:"استمر محمود في إلحاحه: لكنك تعلم أن مقرر التاريخ في المدارس منذ الاحتلال هو تاريخ إنجلترا فقط. التاريخ المصري ممنوع في مدارسنا الآن، ولكن يمكن بالطبع تعليم التلاميذ أهمية النظام والقوة من تاريخ إنجلترا أيضًا، ... قال وصفي – أعتقد سعادتك أنهم منعوا تدريس تاريخ مصر حتى يجنبوا التلاميذ دراسة مرحلة الفتنة والخيانة وتلويث أفكارهم، سأل محمود: أي خيانة تقصد يا حضرة اليوزباشي؟

[1]– يراجع عبدالرحمن الرافعي الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي صـ ٤٥٩ تحت مكافأة سلطان باشا

[2]– واحة الغروب صـ ٣١٩.

-خيانة عرابي ومن معه من العصاة بالطبع.

قالت فيونا: تقصد عرابي باشا يا كابتن نيازي؟ كنت صغيرة أيام ثورته، لكن أبي مثل كثير من الأيرلنديين في حينها يعتبر عرابي باشا بطلًا يقاوم احتلال الإنجليز لبلده، قال وصفي: إذن فهو لم يكن يعلم وأنت أيضًا بالتأكيد لا تعلمين أن عرابي خان مولاه الخديو ونشر الفوضى في البلد. لكن تمرده انتهى لحسن الحظ بهزيمة منكرة. قالت فيونا كثير من زعمائنا في أيرلندا انتهت ثوراتهم على الإنجليز بالهزيمة لكننا نظل نعتبرهم أبطالًا. هم حاولوا على الأقل"([1])

الاحتلال ذو وجه واحد وجه قبيح لا يتغير بتغير المكان ولا الزمن فما جمع محمود وكاثرين هو كرههم للإنجليز معًا بسبب ما فعلوه بمصر وأيرلندا كذلك" كنا نتكلم عن بلدها التعيس وبلدي الأتعس. لا أعرف في الواقع أينا الأتعس حكت لي عن مآس كنت أجهلها تمامًا عما فعله الإنجليز ببلدها منذ أن غزوه،كيف انتزعوا أفضل الأراضي والمزارع وأعطوها للمستعمرين الإنجليز الذين استولوا على ثلاثة أرباع الجزيرة... منعوا السكان الكاثوليك من تملك الأراضي ومن تولي الوظائف... في بعض الفترات منعوا الأيرلنديين حتى من ممارسة العبادة"([2])، جمع وجه الاستعمار القبيح بين وجهين مختلفين مثل محمود وكاثرين، محمود المتشائم الذي يكره كل شيء ويكره نفسه ويلومها على كل شيء، وكاثرين المتفائلة التي ترى بداية جديدة كل يوم وتريد تحقيق إنجاز ينسب لها ولا تلوم نفسها كثيرًا ولا تغرق في الحزن كثيرًا مثل محمود.

[1]- السابق صـ ٢٥٧

[2]- بهاء طاهر واحة الغروب صـ ٩٩

وهي تكره الاحتلال لما فعله في بلدها ومقاطعتها وقد كرهت موقف اليوزباشي وصفي من الاحتلال والخديوي تقول: "يكاد يدافع عن احتلال الإنجليز لبلده! أي عار!"([1])

وقد صرح الكاتب في جزء عنونه بـ (على هامش الرواية) ٩ أنه رجع في المعلومات التاريخية التي أوردها في الرواية عن الثورة العرابية إلى مرجعين أساسيين يقول: "بالنسبة لأحداث الثورة العرابية كان لي مرجعان أساسيان هما كتاب عبدالرحمن الرافعي (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي) وكتاب التاريخ السري لاحتلال إنجلترا لمصر من تأليف ألفريد بلنت)"([2]).

الواحة:

اختار الكاتب مكانًا يمتاز بالاختلاف والغموض ؛ ليبني حوله النص الروائي وهو واحة سيوة لأن الفضاء المكاني يمثل: "مبدأً فاعلًا في بناء النص، ويؤسس لشبكة تنطلق منها الأحداث، وتبرز نتائج الحكاية، من أجل بلورة المتخيل"([3]). فاستطاع أن يعرفنا على الواحة وأن ينقلنا إليها مع أبطال روايته.

يقول بهاء طاهر أنه استند في الحقائق التي تخص تاريخ الواحة إلى كتاب د. أحمد فخري (واحة سيوة) بدأ ذكر الواحة على لسان محمود عندما ذكر أن الرحلة إلى الواحة تستغرق أسبوعين ومع دليل ماهر، والجيش الفارسي الجرار الذي اختفي في الرمال وهو في طريقه إلى أن يغزو الواحة، وقلة الماء

---

[1]- السابق نفس الصفحة

[2]- السابق صـ ٣٤٤

[3]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل ، سلسلة كتابات نقدية ، العدد ١٢١ ، الطبعة الأولى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٢ م ، صـ ٣١٨.

وتغير معالم الطريق بسبب الرياح غير الحيوانات المفترسة من الذئاب والضباع، ويبدأ مستر هارفي المستشار المسئول في النظارة في تعريف الصاغ محمود على نظام الحكم في الواحة وأنه سيتعامل مع كبار العائلات الذين يطلقون عليهم الأجواد، وأن أهل الواحة ينقسمون إلى عشيرتين متصارعتين يسفكون دماء بعضهم البعض،رغم أنهم بنوا أسوارًا وقلعة لتحميهم من غارات البدو، وكان المأمور محمود يحدث نفسه بأنه يعلم أن هلاكه في هذه الواحة وقد قالها قبل حتى بداية رحلة سفره إليها قال: "ثم هذه الواحة"([1])، هذه الواحة ستكون نهاية لرحلته،

اختار الكاتب أن يفصل بين الأزمنة التاريخية المختلفة والمرجعيات الثقافية عن طريق الفصل بين الأصوات الساردة وأن يستحضر تاريخ الإسكندر ومعابد وآثار الواحة من خلال كاثرين الشغوفة بالتاريخ وبالآثار والتي تعلمت ذلك من أبيها، الموهوبة في اللغات، التي علمت نفسها اللغة الهيروغليفية القديمة ،والتي تذهب مع زوجها إلى واحة سيوة لتبحث عن آثار الإسكندر الأكبر ولتثبت وجود مقبرة الإسكندر المفقودة التي لم يعثر عليها ولا على إشارة لمكان وجودها حتى الآن في واحة سيوة تقول: " حلمت أن أرى الواحة التي خطا فوق رمالها الإسكندر الكبير وعاش فيها قصته المثيرة التي لازمته حتى الموت"([2]).

بدأ الحديث عن الواحة وتاريخها مع كاثرين التي قرأت كل شيء كتب في التاريخ عن واحة سيوة : "قرأت كل شيء عن الواحة كتبه المؤرخون والرحالة، أعرف تاريخها القديم والحديث لعلي أعرف التاريخ القديم أكثر ، لكني درست أيضًا ما جرى فيها منذ بداية هذا القرن عندما غزاها جيش الوالي محمد

[1]– واحة الغروب صـ ١٨

[2]– السابق صـ ٢٤.

علي، ضم الباشا الواحة إلى مصر فأنهى استقلالها الذي استمر لمئات السنين لم تخضع خلالها سيوة لأي دولة أو قوة خارجها"([1]).

بدت كاثرين منبهرة بالواحة وبما يدور فيها وما قرأته عنها ، وخاصة مرور الإسكندر الأكبر بها وهو ما شجعها على زيارة الواحة رغم خطورة الرحلة ومشقة الحياة فيها، احترمت ثورتهم على المصريين رغم معرفتها أنها وزوجها المأمور هدف للثوار ، فقد قتلوا المأمورين السابقين على محمود عبد الظاهر وأرسلت الحكومة جيشًا لقمع الثورة والتمرد وإعادة الهدوء للواحة.

ذهبت كاثرين للواحة باختيارها، أرادت أن تكتشف التاريخ هناك، أرادت أن تصنع فارقًا هناك، أما محمود فعرف انه ذاهب لهلاكه يبحث عن الموت من اللحظة الأولى، وقد وضع بهاء طاهر هذا التناقض وجمعه ووظف تاريخ الواحة والآثار الباقية فيها وعاداتها وتقاليدها عبر أبطال روايته محمود وكاثرين، كاثرين نظرت للواحة بتقديس باعتبارها الأرض المقدسة أرض آمون، والأرض التي نُصب فيها الإسكندر إلهًا، محمود رآها مجرد أرض محتلة يحتلونها هم، كما يحتل الإنجليز مصر وأيرلندا، يرى في نفسه وفي قسم الشرطة والجنود غزاة يستحقون الكراهية من أهل الواحة.

أما كاثرين فالواحة عندها أسطورة ولغز اشتاقت للوصول إليها ، ورأت كل شيء في الطريق إليها جميلا مهيبا بل رائع الجمال . حشد بهاء طاهر على لسان كاثرين معلومات تاريخية عن الواحة ، ولكنه مزج بينها وبين إبداع التخييل؛ فأدخل التسجيل في حديث كاثرين لنفسها وفي أفكارها ورؤاها عن الواحة وسبب حبها لها وانبهارها بتاريخها ؛ تقول كاثرين: "تشق القافلة طريقها نحو الغرب في الصحراء فتقترب من الواحة يومًا بعد يوم. أشتاق حقًا إلى الوصول إليها . كل شيء فيها كالأساطير . المكان والناس والتاريخ

[1] – السابق صـ ٢٤

والجغرافيا... سكانها ينتمون للغرب لا للشرق ، إلى قبيلة زناتة من قبائل البربر في المغرب، ويتكلمون لهجة من لغة البربر([1]). لكنها في الزمن القديم كانت جزءًا من مصر الفراعنة ومركزًا لعبادة إلههم الأكبر آمون وهناك أسطورة الأربعين شخصًا الذين هجروا قرية أغورمي المليئة بآثار القدامى ليبنوا في الغرب منها وسط الصحراء الفسيحة مدينتهم الحالية ويحيطوها بالأسوار"([2]).

يحشد بهاء طاهر المعلومات التاريخية في الرواية لكنه لا يجور على الجانب الإبداعي وجمالية الخطاب السردي بل يمزج بين الواقع والمتخيل في تناغم وتناسق ويؤكد في روايته أن:" الرواية خطاب جمالي تتقدم فيه الوظيفة الإنشائية على الوظيفة المرجعية فتتقدم على أنها إبداع وإنشاء لعالم محتمل"([3])، فيحول كاثرين بعد حشدها للمعلومات التاريخية عن الواحة إلى خطاب إنشائي ذاتي تخييلي يكشف فيه عن سمات شخصية كاثرين ويعرف القارئ بها فيخلق نوعين من المعرفة معرفة بالواقع ومعرفة باللاواقع تقول كاثرين:" أشتاق بالفعل إلى رؤية ذلك كله وفهمه ولابد أن الواحة تبادلني شوقًا بشوق !لا أظن أن أحدًا مثلي قد أتاها. كل من جاءوها قبلي اكتفوا بوصف آثارها من الخارج، وبعضهم رسموها، ولكن من منهم كان يستطيع قراءة لغة المصريين القدامى أو اليونان؟"([4])

---

[1]– يراجع كتاب د.أحمد فخري واحات مصر المجلد الأول ترجمة د.جاب الله علي جاب الله، مراجعة د.محمد جمال الدين مختار مطابع هيئة الآثار المصرية، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، مشروع المائة كتاب، دون تاريخ، الكتاب تأليف د. أحمد فخري وكتبه بالإنجليزية ثم ترجم في مشروع هيئة الآثار المصرية عن واحات مصر وقد ذكر بهاء طاهر أن مرجعيته في المعلومات التاريخية عن الواحة ترجع لهذا الكتاب

[2]– واحة الغروب صـ ٥٨

[3]– عبدالله إبراهيم ، التخييل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة السردية ، ط١ ، ٢٠١١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص: ٩

[4]– بهاء طاهر واحة الغروب صـ ٥٨.

لكن الحديث عن تاريخ الواحة وسماتها الجغرافية على لسان كاثرين لم يكن كله حشد للمعلومات وإنما في مواضع أخرى ظهر وصف إبداعي لشكل الواحة عندما رأتها كاثرين للمرة الأولى:"لم نصادف في الطريق شيئًا من المباني غير أسوار البساتين التي لا يرى ما بداخلها أحد، ولفت نظري منذ دخلنا الواحة كثرة النخيل قرب عيون الماء، بل ورأيت نخيلًا غائصًا في البحيرات لا تطفو سوى قممه، ولكن الآن، فجأة، بعد أن ارتقينا ربوة، اخضر الأفق كله أمام عيني غابة لا يحدها البصر من سعف متشابك في الفضاء. بحر أخضر داكن كثيف ومتموج تنهض فوقه البلدة مثل جزيرة بأسوارها الرمادية ومساكنها الصفراء المبنية فوق هضبة هرمية"([1])

ولكن حديث الواحة وأخبارها لم يقتصر على كاثرين ومحمود الأبطال وإنما كان هناك أهل الواحة أنفسهم، الشيخ يحيى، الشيخ صابر، مليكة، الأجواد، زبيدة، بدأ تعريف الواحة على لسان أهلها بالشيخ يحيى أحد الأجواد الغربيين الذي كان له نظرة مغايرة لأمور الواحة، وكان مثقفًا بل ومعالجًا بالأعشاب والزيوت العلاجية التي لا تنتج إلا في سيوة ويأمل أن ينهي العداء والقتال بين أهل الواحة، وظل يتساءل بينه وبين نفسه:" ألم تشبع هذه الأرض من الدم بعد؟"([2]).

الحديث على لسان أهل الواحة يختلف بالطبع عن حديث كاثرين عنها، فالشيخ يحيى يمثل مع أهل الواحة في الرواية بعض الرؤى والمواقف تجاه العادات والتقاليد وسمات المجتمع والخلافات والشقاق، كأن يتحدث عن ابنة أخته مليكة التي رأى فيها أجمل شيء في الواحة لأنها لا تحب عاداتهم وتقاليدهم ولأنها تتمرد على تعليمات أمها التي ترى في اللعب والضحك من

[1]- السابق صـ ٦٦.

[2]- السابق صـ ٦٧.

طفلة صغيرة فضيحة، كان يستنكر ذلك ويحب مليكة أكثر من أبنائه لأنها مثلت جمالًا وسلامًا يتمنى أن يحل بالواحة.

نقل بهاء طاهر على لسان الشيخ يحيى ما يدور في مجلس الأجواد الذين يحكمون الواحة، وكيفية تعاملهم مع الضرائب المفروضة عليهم من الحكومة والتي قادت إليهم المأمور وزوجته، وكيف يتناقشون بين ثائر وحكيم وطامع في منصب العمدة، يريد أن ينقل لنا وجه الواحة عبر صوت سارد خارجي، لكنه لم يتعمق كثيرًا في شكل البيوت والحياة فيها، فقد نقل فقط وجهة نظر بعض الأجواد ودواخل ذواتهم وحديث أنفسهم. غير أن هناك من بعض عادات الزواج وأمور السياسة نقلها الشيخ يحيى في قصة مليكة ابنة أخته التي زوجوها من عجوز هالك، وأن زواج الصغيرات من كبير السن ليس عيبًا عندهم، وأنهم يستمعون جميعًا لشيخ عندهم اسمه الشيخ المهدي السنوسي، وقد أمر بالتزاوج بين الشرقيين والغربيين لينعقد الصلح بينهم وقد وقع الاختيار على مليكة وتزوجها الشيخ العجوز.

وكذلك على لسان المأمور محمود كان يصف الفقر في الواحة يقول:"منذ اللحظة الأولى لدخولي الواحة أذهلني الفقر ولاسيما فقر الزجالة، وأذهلتني جسامة الضرائب التي تطالبني الحكومة بجمعها منهم"([1])، والزجالة أو الزقالة([2])، وهي جمع زقال ومعناها الحرفي حامل الزقلة وهي العصا القصيرة الغليظة، وهم مجموعة من الرجال كانوا يعملون في بساتين الأغنياء وكانوا ينتسبون إلى العائلات الفقيرة الذين لا يمتلكون أرضًا، وأشير إلى الزجال كذلك بكلمة خديم.

[1]– السابق صـ ٨٩

[2]– يراجع أحمد فخري واحة سيوة صـ٦٩.

مجتمع الواحة والعادات والتقاليد:

نتعرف من الرواية على مجتمع الواحة، ولكنها معرفة مغلقة كذلك، لأن جزءًا منها كان من منظور الغرباء، ولم يتكلم من أصوات أهل الواحة سوى صوت الشيخ يحيى والشيخ صابر ولكن حوار الرواية المبدع كشف عن بعض من ملامح مجتمع الواحة تقول كاثرين:" لماذا هم هنا هكذا؟ لماذا أعجز عن كسب ودهم أو مجرد معرفتهم؟ أسوار حول البساتين وحصن حول البلدة وسور حول الحصن – كيف جرحهم العالم حتى تقوقعوا داخل كل هذه الأصداف؟"([1])، ويؤكد بهاء طاهر فكرة الأسوار التي يحيط بها أهل الواحة أنفسهم فتعود كاثرين مرة أخرى للحديث عن الأسوار تقول: " كان الأولاد يحفرون في الأرض قنوات يصبون فيها ماء ويضعون على حوافها غصونًا صغيرة خضراء ليرووا بساتين تشبه بساتين آبائهم. ولكن أهم شيء أنهم لا ينسون أيضًا بناء أسوار رملية عالية حول بساتينهم يتعلمون الأسوار منذ الصغر. أما البنات فيلعبن على حدة بعيدًا عن الصبيان. أسوار أخرى!"([2]).

نقل الكاتب فكرة الأسوار التي ربما قابلته هو أثناء محاولته التعرف على الواحة وأكد عليها، من خلال كاثرين التي قوبلت بالصد من جميع أهل الواحة ماعدا الشيخ يحيى ومليكة، ولكنهم على الرغم من بنائهم الأسوار حول مدينتهم وحول مجتمعهم فإنهم يساعدون حتى الغريب المحتاج للمساعدة وإن كانت مساعدتهم للشاويش إبراهيم، تعد نوعًا من رد الجميل لأنه أنقذ ابنهم من الموت في حادثة سقوط الحجر في المعبد، فبعد أن فشل الممرض في علاجه، وكادوا يقطعون ساقه، أنقذه الطب البدوي يقول محمود: "سمحت لهم أن يبدأوا العلاج الذي احتج عليه الممرض وكاثرين والذي وافقت عليه أنا يأسًا، ولم يقل الجنود

---

[1]– السابق صـ ١٠٧.

٤– السابق صـ ١٧٣.

شيئًا ولكني كنت أرى في عيونهم أيضًا نظرات الرفض والتأنيب لسماحي بهذه الشعوذة لكن بعد أيام من تعاطي إبراهيم لأنواع الشراب التي لم نعرف ما هي ودهن ساقه بتلك الزيوت، اختفت الزرقة التي كانت تضرب ساقه ثم بدأت الحمى تنحسر بالتدريج"([1])، ثم نصح المعالجون أنه يحتاج للعلاج بالكي، والجدير بالذكر أن تفاصيل عملية العلاج بالكي التي نقلها بهاء طاهر بدقة، وصورها بعناية، لم يرد لها ذكر في كتاب أحمد فخري واحة سيوة المرجع الذي استند إليه بهاء طاهر في معلوماته بخصوص الواحة كما ذكر آنفًا، ولكنه نقل مشهد العلاج بصورة تخييلية مبدعة يقول على لسان محمود: "استغرق البدوي وقتًا في تحسس الساق المصابة أسفل الركبة لكن بعيدًا عن موضع الجرح . وكانت تأوهات إبراهيم تزيد والرجل يتحسس بأصابعه الغليظة ببطء تلك الأماكن وفي لحظة توقف وضغط بسبابته بشدة على نقطة معينة فعلت صرخة ألم مفاجئة من إبراهيم وصاح البدوي بالجنود ألا يسمحوا لإبراهيم بأي حركة قبل أن يلتقط المسمار من النار بسرعة ويكوي به الموضع لثوان أخرى وسط صراخ إبراهيم وعويله ...كانت رائحة اللحم المحترق تملأ المكان قبل أن يخرج البدوي من ثيابه قارورة في جراب جلدي صب منها سائلًا على مكان الكي سمعت له هسهسة متكررة ثم رأيته يكون زبدًا أبيض فوق موضع الحرق وعندما جف السائل الذي وضعه بدأ يربط مكان الكي بضمادة"([2]). وقد نجح البدوي الذي عالج الشاويش إبراهيم وأنقذه من بتر رجله ومن الموت، والكاتب يشير هنا إلى ما تتميز به الواحة من أعشاب علاجية وطرق علاج بدوي، في هذا الموضع وفي موضع آخر يخص فيونا أخت كاثرين التي جاءت من بلدها مريضة وحاول الشيخ يحيى علاجها، هو والمرأة زبيدة بأعشاب وزيوت لها طرق مختلفة بالنقع والشرب أو الدهان، كما أشاروا أيضا إلى العلاج بالدفن في الرمال .

[1]- السابق صـ ١٥٤

[2]- السابق صـ ١٥٩

إن مجتمع الواحة له تقاليد مغايرة عن مجتمع مصر في تلك الحقبة وقد ذكرت ذلك كاثرين وقارنت بين الواحة وتقاليدها وبين ما اختبرته وقابلته في الدلتا وفي الصعيد في رحلاتها وتجولها بين محافظات مصر لزيارة المعابد والآثار القديمة، مثل صنع بابين في الواحة باب يدخل منه الرجال وباب تدخل منه النساء وهذا ما قاله الشيخ صابر لكاثرين:" عفوًا يا هانم ألا تعرفين أن هذا الباب هو باب الأجواد؟ أشار خلفه إلى الباب السميك المصنوع من جذوع نخيل متلاصقة هناك باب آخر للنساء عندنا لا يمكن للنساء الدخول من باب الأجواد"([1]) ، وهو نوع من الفصل بين الرجال والنساء حتى لا يلتقون في باب واحد، في تأكيد آخر لفكرة الأسوار .

ثم هناك قصة الشابة مليكة والغولة " عندما يتوفى شخص مخلفًا وراءه أرملة يطلقون عليها اسم الغولة ذلك أن المجتمع يعتقد أنها صارت لديها عين قوية حسودة تجلب سوء الحظ لمن تقع عليه وهذه الأرملة المسكينة قد لا تكون بلغت من السن أكثر من ستة أو سبعة عش عامًا إلا أن شقاءها يبدأ من اللحظة التي يواري فيه زوجها التراب ويصطحبها بعض أقاربها من النساء إلى عين طموسي حيث تخلع ثيابها وحليها المعتادة وترتدي ثوبًا أبيض علامة على الحزن ثم بعد ذلك يكون على هذه المرأة المنكوبة أن تعيش في عزلة تامة طول أربعة شهور وعشرة أيام في الأيام الماضية، وأربعين يومًا في عصرنا الحالي ...وهم يعتقدون أنه لو وقع بصرها على أحد لأصابته بالنحس"([2])

وقد وظف بهاء طاهر هذا الموروث الخرافي في الثقافة السيوية في الرواية في قصة الشابة مليكة التي كانت تمثل الجمال والثورة على تقاليد المجتمع غير المنطقية وكانت تحب المعابد والآثار القديمة، وعندها موهبة فن

[1]- الرواية صـ ١٦٦.

[2]- أحمد فخري واحة سيوة صـ ٨٨.

النحت لكن الواحة قتلتها وقتلت طفولتها عملًا بموروثات وشعوذة اخترعها القدماء في الواحة وتبعتهم الأجيال دون وعي أو فهم وهكذا كان مصير مليكة حين توفي عنها زوجها صارت غولة وهي أجمل بنات الواحة تقول كاثرين: "الثوب الأبيض هو زي الحداد للأرامل هنا ومليكة تعيش فترة العقوبة التي يفرضونها على الأرامل هنا في الواحة قد لا تكون عقوبة بل مجرد رعب متوارث من الموت . ليس من الموت بل من المرأة نفسها لأنهم لا يفرضون هذه العقوبة على الرجل أما الأرملة فيجب أن تنتظر طويلًا حتى تتطهر من الروح التي تلبستها وجلبت على زوجها الراحل الموت، ويجب ألا تخرج من بيتها حتى لا يقع عليها بصر أحد حتى لا يصيبه الهلاك لأن ملاك الموت يتقمصها"[١]وعندما تمردت مليكة على هذه التقاليد وخرجت قبل أن تتطهر قتلوها وقالوا إنها قتلت نفسها وحزن عليها الشيخ يحيى خالها حزنًا شديدًا، وكذلك كاثرين لفترة بسيطة ومحمود ايضًا، وكانت حادثتها السبب في انتهاء العلاقة بين كاثرين ومحمود.

وهناك بعض إشارات كذلك عن العادات والتقاليد في الواحة مثل قول الصول وهبة السلماوي للمأمور محمود: " وحتى ولو كانت عجوزًا وعمرها مائة سنة فلايجب أن يدخل أي رجل إلى البيت وهي فيه ما دامت قد تركت العباءة أمام الباب فذلك يمنع دخول الرجال هذه عادتهم"([٢])

وكذلك قالت كاثرين عن أهل الواحة أنهم لا يسمحون للأغراب بالتجول بين بيوتهم وكشف حرمتها من وجهة نظرهم " لا يستطيع أن يتجول وسط بيوت تسكنها أسر ونساء يمكنني أن أفعل ذلك كامرأة، أما هو فلا يستطيع بسبب عاداتهم وتقاليدهم. لم تكن تدري أن ذلك مستحيل حتى بالنسبة لامرأة"([٣])، أشار

[١]– واحة الغروب صـ ١٨٥.

[٢]– واحة الغروب صـ ٢٧٢.

[٣]– السابق نفس الصفحة

بهاء طاهر إلى تلك الملامح عن مجتمع الواحة لينبه على بعض الموروثات الخرافية التي يؤمن بها الناس هناك لينقل لنا كيف عاش الناس في هذه البقعة البعيدة المعزولة من أرض مصر، ويعرف القارئ عليها وقد وظف أكثر هذه العادات غرابة واستحقاقًا بالتوظيف لتكون عامل جذب للقارئ كما تثري الحبكة الدرامية للعمل الروائي.

آثار ومعابد الواحة:

أورد بهاء طاهر في الرواية الكثير من المعلومات التاريخية عن الآثار والمعابد في واحة سيوة،

وقد نقل وجهات نظر متباينة ناحية تلك الآثار والمعابد تمثل وجهات نظر شخوص الرواية، كما تمثل وجهات نظر من الواقع. هناك الرؤية التي تقدس وتبجل تلك الآثار لقيمتها التاريخية والإخبارية، مثل كاثرين واليوزباشي وصفي، وهناك من يرى الطاقة الروحية في تلك الأماكن مثل مليكة التي كانت تتحدى أهل الواحة وتقاليدهم وما يسود بينهم عن تلك الآثار، وتتحدى أمها وتتنقل في المعابد حتى ظهرت موهبتها في فن النحت مثل الأسلاف، وهناك محمود الذي يرى الآثار والمعابد لا تنفع في وقت الحرب الذي تعيشه البلاد وأن تاريخ الأسلاف الأموات لا يجدي نفعًا فيما يعيشه الأحفاد الأحياء من ظلم وقمع تحت ظل الاحتلال يقول محمود: "ما الذي يعنيني من تاريخهم أو من تاريخ الإسكندر؟"([1])، كما أنه يكره التاريخ كرهًا شديدًا فيهزأ من هيرودوت الذي لقب بأبي التاريخ ووصفه لماء عين الجوبة وتغير درجة حرارته طوال اليوم تبعًا للشمس ولذا سميت بعين الشمس، وأنه رأى العين ومر بها في فترات مختلفة

[1]- واحة الغروب صـ ٩٨.

من اليوم ولم ير ذلك، فيسخر من وصف هيرودوت ويقول: "أبو التاريخ لا عجب أن التاريخ لقيط فعلًا!"([1]).

ويقول عن معبد بلاد الروم والذي اندثر في بحيرة خميسة: "لحسن الحظ أنه اندثر فوفر على الناس مهمة البحث " [2]وهناك أهل الواحة الذين يكرهون الأصنام ويحطمونها ويروها مكمن الشرور، ويكرهون المعابد ومقابر القدماء ويرونها موطن الشياطين ومصدر كل الشرور واللعنات التي تحل عليهم ولكنهم لا يتورعون عن البحث عن الكنوز والذهب والتماثيل لبيعها والتحصل على ثروة من ورائها، ولكنهم يؤمنون بأن النقوش والآثار تتبع الكفار ولا خير فيها تقول كاثرين: "قدته حتى جدار مازال محتفظًا بنقوش جميلة للآلهة القدامى، أشرت على صورة بديعة التكوين للإلهة إيزيس ملونة بالأزرق والأحمر وسألته: كويس؟ اكفهر وجهه وهو ينزع يده من يدي بعنف ثم بصق على الصورة وهو يصيح في غضب: كفار!"([3])

وهنا تظهر القيمة الإبداعية للرواية التاريخية بوجه عام ولرواية واحة الغروب بوجه خاص لأنها رواية جديدة تنقل في لغتها وطاقتها السردية والفنية التاريخ والواقع وتسجله "ولعل أولى الرسائل الواضحة التي تحملها هذه الرواية الجديدة، أنها ترفض الكتابة المزيفة والكاذبة، وتقدم كتابة حقيقية، ترفض اللغة التي صارت تسجننا في إطار زيفها، في حين أنها لا تفعل سوى مواصلة سجننا وقتلنا أحيانًا، هذه اللغة التي تنفصل فيها الكلمات عن نفسها، تصبح مجرد أصوات أو حروف فارغة خالية من المعنى، ينفصل فيها المعنى إن وجد عن

[1]– السابق صـ ١١٦

[2]– السابق صـ ٢٢٤.

[3]– واحة الغروب صـ ١١٢.

الحقيقة، وتنفصل فيها الحقيقة إن وجدت عن معاناة الواقع والحياة"([1]). لكن كاتب الرواية التاريخية مثل بهاء طاهر في واحة الغروب هنا استطاع أن ينطق بالتاريخ على لسان شخوص روايته التي رسمها بعناية ودقة في أصوات متداخلة، واستطاع أن يعرفنا على الآثار والمعابد تعريفًا تاريخيًا أدبيًا، بتوازن بين الواقع واللاواقع. كما عرّفنا كذلك على مجتمع الواحة وبعض ملامحه.

نجده يسأل سؤالًا وجوديًا على لسان محمود لكاثرين يقول لها:" عن أي شيء تفتشين في هذه الآثار يا كاثرين؟"([2])، سؤال أبدي، ما الذي أهم هؤلاء الأجانب في آثار بلادنا حتى تكبدوا المهالك في سبيل اكتشافها، هل هو مجد العلم؟ أم لذة الكشف عن المجهول والغامض والسري؟ لماذا تهمهم وهم بعيدون عنها ولا تهمنا بنفس القدر وهي قريبة منا، لم لا نبحث عن الخلاص في مجد السابقين؟ أم أن الأمر انحصر دائمًا في الطمع في الكنوز المدفونة، وكان العلم مجرد ذريعة، مثل غيرها من الذرائع؟ أورد بهاء طاهر على لسان كاثرين أن المقابر كلها منهوبة:" المقابر الموجودة في جبل الموتى كلها مع الأسف منهوبة. المومياوات والتوابيت وكل آثار أخرى"([3]). وقد وظف شخصية كاثرين ليعرفنا على المعابد وبعض الآثار في الواحة وقد تركز الحديث عن المعابد والآثار التالية:

[1]– سيد البحراوي : الحب في المنفى رواية الحقيقة ، حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، ع١٣٦، ١٩٩٦، صـ ١٣٠

[2]– بهاء طاهر واحة الغروب صـ ٩٢.

[3]– السابق صـ٩٣.

معبد الوحي([1]) أو المعبد الكبير:

معبد آمون أو معبد الوحي سمي أيضا بمعبد التنبؤات هو أحد أهم المواقع الأثرية في واحة سيوة بمحافظة مطروح، ويرجع تاريخه إلى عصر الأسرة السادسة والعشرين، حيث تشير النقوش في منطقة قدس الأقداس أن من أنشأ المعبد هو الملك أحمس الثاني (٥٧٠-٥٢٦ ق.م) أحد أهم ملوك تلك الأسرة. ترجع أهمية المعبد إلى كونه معبد خاص بالنبوءة والوحي الإلهي باعتباره مهبط وحي الإله آمون، ولهذا كان مقصدًا هامًا للناس في العالم القديم لاستشارة المعبود عن طريق كهنته في الأمور الغامضة والمصيرية. ارتبط المعبد بكثير من القصص، أشهرها وأهمها قصة جيش قمبيز المفقود، ذلك الجيش الذي أرسله الملك الفارسي قمبيز عام ٥٢٥ ق.م لهدم المعبد حتى يثبت للمصريين والإغريق فساد عقيدتهم تجاه الوحي والنبوءة التي ارتبطت بالمعبد، والغريب في الأمر -الذي ظل لغزًا إلى الآن- أن جيش قمبيز فقد بالكامل بعد أن غادر واحة الخارجة متجهًا نحو واحة سيوة، وتذكر السجلات التاريخية أن الجيش طمر تحت الرمال بسبب رياح عنيفة، ومن أهم الأحداث التي زادت المعبد شهرة زيارة الإسكندر الأكبر للمعبد عام ٣٣١ ق.م حتى يتوج ابناً للإله آمون ويتنبأ بمصير حملاته العسكرية، كما يشهد المعبد ظاهرة فلكية تسمى الاعتدال الربيعي حيث يتعامد قرص الشمس على المعبد مرتين كل عام.

جاء ذكر المعابد في الرواية كما سلف في ضوء اهتمام كاثرين زوجة محمود عبد الظاهر الأيرلندية بالإسكندر الأكبر وزيارته للواحة ومصير مقبرته

١- يراجع أحمد فخري واحة سيوة صـ ١٧٩-١٩٩، ويراجع كذلك موقع http://www.antiquities.gov.eg/DefaultAr/Archeological-sites/Pages/Archeologicaldetails.aspx?ArchCode=٩١

المجهول، تقول"قررت أن أبدأ بزيارة معبد آمون، معبد الوحي الذي صنع قصة الإسكندر كلها"([1]).

وتتأثر تأثرًا شديدًا بما آل إليه المعبد واستخدام سكان الواحة له على أنه مطبخ تقول: "قاعات المعبد ذات المداخل الحجرية مسدودة أيضًا بالطوب الأصفر وقد أصبحت بيوتًا لها أبواب خشبية. لم أجد سوى بهو واحد مفتوح يفضي إليه ممر ورأيت بقايا نقوش على مدخله وعلى جدرانه، لكني لم أستطع أن أتبين أيًا من النقوش، أو اقرأ الكتابات المحفورة على الجدران كان يطمسها سواد دخان كثيف:"([2])

"أيمكن أن تكون هذه القاعة هي قدس الأقداس للمعبد الذي تلقى فيه الإسكندر الوحي من آمون؟ كيف أعرف وأنا لم أر بقية المعبد؟ لو كنت من النساء اللائي يبكين لطفرت من عيني دموع وأنا أقارن بين ما قرأته عن موكب الإسكندر في هذا المكان وهو يمر وسط الزينات والغناء تحف به بهجة الصور الملونة على الجانبين وبين ما آل إليه الحال هنا. مطبخ؟ قدس الأقداس مطبخ؟!"([3])

وهنا يلقي الكاتب الضوء على قضية تضييع ونهب الآثار وتدمير معالمها إما بالجهل أو بغرض السرقة في تلك الحقبة من تاريخ مصر، فيوضح كيف صار معبد بهذه الأهمية مطبخًا لقرية، كما كان الشأن بالنسبة لطريق الكباش الذي افتتح قريبًا وقد كانت أجزاء كبيرة منه مندثرة تحت البيوت واحتاجت جهودًا ضخمة للتنقيب والترميم .

[1]- السابق صـ ١٠٦.

[2]- السابق نفس الصفحة

[3]- السابق صـ ١٠٨

معبد أم معبد أو أم عبيدة:

يُعد معبد أم عبيدة من أعرق وأهم وأقدم المعابد في واحة سيوة، شيد في عصر الأسرة الثلاثين على يد الملك نكتانبو الثاني،[١] يقع المعبد علي بعد ٤ كيلو متر شرق مدينة سيوة وهو المعبد الثاني للإله آمون، ويرجَّح أنّ اسم أم عبيدة تحريف لاسم أم معبد ظل جزء كبير من معبد أم عبيدة حتي بداية القرن التاسع عشر بحالة لا بأس بها ولكن في عام ١٨١١ ميلاديًا كانت بداية النهاية حيث تعرَّض المعبد لزلزال قوي دمر جزء منه، وبين عامي ١٨١٩ و١٨٢١ لاحظ الرحالة الذين ذهبوا إلى المعبد مثل الرحالة كايو ودروفيتي وفون منيوتولي أن بعض الكتل الحجرية قد سقطت من السقف وأن أحد جدران المعبد كان آيلًا للسقوط حتي عام ١٨٩٧ حينما أكمل تدميره المأمور محمود عزمي حينما وضع البارود في باقي أجزاء المعبد ونسفها بغرض الحصول على الحجارة لبناء سلم مركز الشرطة ومنزله الخاص. وقد ذكر بهاء طاهر هذه المعلومة في نهاية الرواية يقول: " تجدر الإشارة إلى أنه يقال إن حجارة المعبد قد استخدمت في بناء سلم جديد لقسم الشرطة وفي ترميم مسكن مأمور الواحة!"([١]).

وتتمنى كاثرين لو كان الحال أفضل في معبد أم عبيدة فشخصيتها عملية متفائلة دومًا لا تتوقف كثيرًا عند الأحداث وإنما تتجاوزها على الفور تقول: "ربما يكون الحال أفضل ونحن نزور المعبد الذي يسمونه هنا أم معبد أو أم عبيدة، هو أيضًا معبد لآمون وعمارته تدل على أنه بني في عصر الصحوة المصرية التي سبقت غزو الفرس، رأيته مرات من الخارج أثناء تجولنا في الواحة وأرجو أن يكون قد سلم من العبث بالنقوش والكتابات التي سجل صورها الرحالة

[١]- واحة الغروب صـ ٣٤٥.

الألماني (فون مينوتولي) في بداية القرن"([1])، ونلاحظ كيف يركز بهاء طاهر على حشد المعلومات التاريخية على لسان كاثرين مع حرصه كذلك على إظهار جوانب شخصيتها والكشف عن تطورها مع نمو الأحداث .

ويمتاز السرد كذلك بالوصف الدقيق والمسهب للتفاصيل التي تفعل خيال القارئ نحو الصورة فيرسم صحراء ويبني معبدًا وينتقل إلى عصر محمود وكاثرين وإلى الواحة وآثارها ويجعله يجول ببصره مع محمود إذ "خلع محمود خوذته المكورة وراح يجفف العرق من وجهه ورأسه بمنديل كبير وجال ببصره في المعبد الذي تتكدس وسط أطلاله حجارة كبيرة سقطت في زلزال في بداية القرن كما قرأت في الكتب"([2]).

كما تعطينا الصورة الحية تجربة حية كذلك لا يكتفي بالوظيفة الإخبارية للتسجيل التاريخي وإنما يؤكد مرة بعد مرة على الجانب التخييلي الإبداعي فتكتمل الصورة الذهنية للمعبد كما تراه كاثرين فـ" هناك المدخل الحجري أو ما بقي منه والبوابة الخارجية التي شطرها الزلزال إلى نصفين مازالت تربط بينهم حجارة السقف الذي انهار معظمه أيضًا. وفي الداخل بقايا جدران تقسم المعبد إلى قاعات لم يبق ما يدل عليها سوى أطلال أعمدة والأرضية المرصوفة

---

[1]– السابق صـ ١٠٩ لمعلومات عن المعبد وصوره المنقولة من الرحالة فون مينوتولي يراجع بحث بعنوان : (معابد سيوة المفقودة وصفها ومحاولة تخطيطها د. عبد الرحمن علي عبد الرحمن ، كلية الآثار جامعة القاهرة والبحث منشور في :

https://scholar.cu.edu.eg/?q=sihawary/files/mbd_syw_lmfqwd.pdf

يراجع موقع

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D٩%٨٥%D٨%B٩%D٨%A٨%D٨%AF_%D٨%A٣%D٩%٨٥_%D٨%B٩%D٨%A٨%D٩%٨A%D٨%AF%D٨%A٩

[2]– السابق صـ ١١٠.

بالحجارة البيضاء التي نبتت وسطها الحشائش... مازالت الرسوم والكتابات الهيروغليفية واضحة على الجدران"([1]) .

كما أن هناك إشارة للنقوش والكتابات على جدران المعبد والتي تضفي سمة الواقعية على المعلومات:" صور الجدار القريب وكتاباته لا تعنيني معظمها طقوس للمتوفي لينطق بالحقيقة في يوم الحساب يسميها البعض كتاب الموتى توجد عادة في المقابر لكنها نادرًا ما تظهر في المعابد على أي حال هي دليل على أن هذا معبد جنائزي لتأبين وتخليد ملك أو شخص عظيم يعبد الإله آمون. لا علاقة لهذا بأي بحث عن الإسكندر الذي شيدوا المعبد قبل زيارته. لكن ما دمنا هنا فلنعمل. سأبدأ بنقل ما هو موجود على الجدران وأصوب الأخطاء الموجودة في الكتب وقد يصادفني الحظ فأجد نصًا أحدث. لم لا؟"([2])، تظهر كذلك إبداعية العمل الروائي في الاندماج الكامل بين ما هو واقعي حقيقي وبين ما هو تخييلي فيصعب علينا التفريق بينهما وهو ما يجب ان تكون عليه الرواية التاريخية. فالعالم الجديد الذي يخلقه الروائي يجب أن يكسر صرامة العالم الحقيقي ويميل لجانب اللاواقع على الواقع، فيكسر الصور النمطية النفعية في العلم والحقائق ويكسر معها أفق انتظار المتوقع الذي يتساءل طوال عملية القراءة ما الحقيقي وما الخيالي؟ مع معرفته بأن الخيالي يستند إلى خلفية حقيقية تاريخية ولكن إلى أي مدى من التفاعل مع النص يقود هذا الدمج بين الطرفين وهنا تتحقق الغاية المنشودة من النص الأدبي الروائي.

[1]- واحة الغروب صـ ١١١.

[2]- السابق صـ ١١٦.

معبد بلاد الروم:

لم تزره كاثرين ولا جاء ذكره إلا عندما وصل اليوزباشي وصفي نيازي في الثلث الأخير من الرواية، عندما سألته كاثرين إن كان يعرف بمكان وجود أي معابد يونانية أو رومانية . أخبرها عن معبد بلاد الروم:" تحتاج المسألة بحثًا على الأرض، لكن ربما يكون من بينها معبد بلاد الروم التسمية توحي أنه كان معبدًا يونانيًا أو رومانيًا. بالتأكيد لم يكن يشبه المعابد المصرية القديمة، قالت كاثرين: قرأت ما قاله عنه أول من رآه من الرحالة وهو أنه أجمل معابد الواحة. لكن المعبد تحطم بعد ذلك تمامًا، لم يبق منه عامود واحد وإنما مجرد حجارة متناثرة وسط مستنقعات قرب بحيرة خميسة"([1])

ولا يمكن أن نغفل الإشارة إلى المراجع التي استندت إليها كاثرين، وكأن الكاتب يشير إلى مرجعية الحقيقة في الرواية ويدعو القارئ للعودة إليها ومراجعتها كما فعل عند ذكر عادات وتقاليد الواحة، تقول كاثرين: "الكتب نفسها التي أحضرتها معي من القاهرة – أطلس مينوتولي الشهير والصور التي رسمها للمعابد عند زيارته للواحة في عام ١٨٢٠ وترجمة لكتاب رولفس الألماني عن الواحات وكتب أخرى أعرفها"([2])

"لكني وجدت مقالًا جديدًا في المجلة الجغرافية الملكية لإنجليزي اسمه بارملي عن الصحراء الغربية وقبائلها، استأذنته في الاطلاع على المجلة وإعادتها له بعد أيام، فقال إنني يمكن أن آخذ كل الوقت الذي أحتاجه لأنه قرأ المقال بالفعل، وكان يعرف من قبل أن يقرأه أن كل المعابد المصرية الموجودة

[1]– السابق صـ ٢٢٤.

[2]– واحة الغروب صـ ٢٥٤.

في سيوة بما فيها معبد الوحي، ترجع إلى آخر فترات الصحوة المصرية قبيل غزو الفرس لمصر"([1]).

وحتى لا يتحول السرد إلى معلومات تاريخية مكثفة يستحضر الكاتب بطل روايته ليظهر جوانب جديدة من شخصيته ويؤكد على الصورة التي رسمها له من بداية الرواية "يا محمود المعبد عند المصريين لم يكن مجرد بناء بل وسيلة حماية، كان رمزًا للبد كله سقفه مزين بالنجوم كالسماء وأرضيته هي تربة مصر، ينبت فيها الزره المرسوم على الأعمدة التي كانت هي نفسها نباتًا سامقًا من البردي، وفي قدس الأقداس يتجلى الإله الذي يحمي هذا الوطن من الخراب ومن الأعداء أيضًا"([2])

ولكن شخصية اليوزباشي وصفي شخصية محيرة بعض الشيء فهو مثقف ومتعلم وجنتلمان ومجتهد ومنضبط ورغم ذلك فإنه يمقت عرابي وثورته ويراهم خونة ويدافع عن الاحتلال ألا تقود الثقافة وكثرة الاطلاع إلى حب الحرية والعدالة وإنصاف المظلوم والبعد عن العنصرية؟ وقد اصطحب معه إلى الواحة كثيرا من الكتب والمجلات التي استعارتها كاثرين ويحاورها فيها، وهو ذاهب في مهمة رسمية لا علاقة لها بكتب التاريخ وقراءات علماء الآثار، ما يشير إلى حبه للثقافة وشغفه بالعلم، وقد أشار كذلك إلى أنه قرأ كل شيء عن الواحة كتب من قبل وتكونت عنده بعض التساؤلات عن تاريخ آمون وعن الواحة يقول: " في العصور المتأخرة كانوا يعبدون آمون في سيوة باعتباره إله الشمس الغاربة، أعرف أنهم وحدوا بينه وبين رع إله الشمس، لكن لماذا عبدوه هنا كشمس غاربة؟ "([3])

---

[1]– السابق نفس الصفحة

[2]– السابق صـ ٢٥٥.

[3]– السابق نفس الصفحة

وأجابته كاثرين:" أنت تعرف يا كابتن وصفي أن الغرب أو الأفق الغربي عند المصريين هو مملكة أوزوريس، مملكة الموتى وأرض الحساب التي اعتقد المصريون أنها في مكان ما في الصحراء الغربية، وبما أن سيوة هي أقصى الغرب من مصر فلعلهم اعتبروها أيضًا آخر محطة تغرب فيها الشمس عن الدنيا"([1]) وقد تساءل محمود كذلك عن سر اهتمامه بتلك الأمور وظن أنه يفعل ذلك للتسلية فـ" قال وصفي: هذه ليست مجرد تسلية يا سعادة المأمور، أنا أحاول أن أعرف تاريخ بلدي وأجدادي. أدرس آثارهم وعظمتهم التي بهرت الدنيا لنقتدي بهم، لو كان الأمر بيدي لقررت تدريس تاريخ مصر القديمة وآثارها على التلاميذ منذ الصغر، سيتعلمون كيف كانت الدولة قوية والحكومة منظمة وأننا يجب أن نصبح أقوياء مثلهم لنسترد عظمتهم"([2]).

وأرى أن بهاء طاهر استغل شخصية وصفي ليثري حديث التاريخ على لسان كاثرين للتنويع في الحوار ويظهر ذلك من كم المعلومات التاريخية التي حشدت في حديث كاثرين ووصفي ؛ يقول وصفي عن معبد بلاد الروم: "هو على الأغلب معبد يوناني أو روماني لأنهم أسموه المعبد الدوري اليوناني وأعمدته ليست من طراز الأعمدة المصرية .

قلت: لا يمكن مع الأسف أن نتأكد من ذلك لأنه تهدم كله.

قال وصفي: نعم، لكني قرأت أيضًا أنه توجد في المنطقة المجاورة له مقابر منحوتة في الصخر، كلها منهوبة ولا توجد عليها نقوش لكنها في الأغلب أيضًا مقابر يونانية أو رومانية، فكرت قليلًا ثم سألته: هل تنوي زيارة هذه المنطقة يا كابتن وصفي؟ خميسة ليست بعيدة وهي غنية بآثار لا توجد في

[1]- السابق نفس الصفحة

[2]- واحة الغروب صـ ٢٥٦.

غيرها([1]). مع أن الكاتب لم ينس أن يؤكد على تكبر وصفي في وصف محمود للتدريبات الشاقة التي فرضها على الجنود ولهجته الآمرة وكذلك حادثة صفع الشاويش وهبة السلماوي، كما ذكر محمود أن وصفي يرى في العامة فلاحين بل عبيد لا يصلحون لحكم أنفسهم وهم من جلبوا على فرنسا الهزيمة في المعارك لأنهم حكموها بأنفسهم على النقيض من إنجلترا التي تحكمها الملكية، فكيف يكون المثقف بهذه الدرجة من العنصرية، وهو المطلع على أحوال الأمم السابقة وكيف دالت دولهم، وكيف يموت الطغاة ويجلدهم ويحاكمهم التاريخ القاسي الذي لا يرحم ولا يخلد إلا الأوطان ولا ينتصر إلا العدل وإن طالت دولة الظلم؟.

عين الجوبة أو عين الشمس أو عين كليوباترا:

تقع بالقرب من معبد أم عبيدة على بُعد ٤ كم جنوب واحة سيوة، بالقرب من البلدة القديمة، حيث تقع في نفس اتجاه جبل الدكرور ومعبد آمون ومعبد الوحي وقد ذكرها هيرودوت(٢) ، وغيره من الرحالة القدماء، وهي تعتبر من أجمل عيون الواحة يرجع تسمية تلك العين بعين الشمس إلى القرن ١٥ ق.م، حيث أُطلق عليها المؤرخ هيرودوت هذا الاسم لارتباطها بإله الشمس عند الإغريق، ولكن أهل سيوة يقولون([3]). إن سر تسميتها بهذا الاسم هو ارتباط درجة حرارة ماء العين بالشمس على مدار اليوم، وتحكي قصص التاريخ أن الإسكندر الأكبر جاء ليغتسل في عين الشمس أثناء زيارته لواحة سيوة وأنه مر

---

[1]- واحة الغروب صـ ٢٥٩.

[2]- أحمد فخري واحة سيوة صـ ١٦٦.

[3]- https://ccha.castle-journal.info/index.php/٢٠١٩-٠٤-٠٨-١٢-٥٥-١١-١٢-٠٢-٠٧-٠٥-٢٠٢١-١٨١٩/item/١٩ يراجع موقع وكذلك موسوعة كنوز أم الدنيا على شبكة الإنترنت

على تلك العين خلال ذهابه لمعبد آمون. ويتردد بين أبناء الواحة أن الملكة كليوباترا قد زارت العين ولذا سميت بعين كليوباترا، والعين عبارة عن عين مُستديرة من الحجر ومُسيجة بسور بقطر يبلغ ٤٠ مترًا. والجدير بالذكر ان المعلومات التي سجلها بهاء طاهر في الرواية عن عين الشمس أكثر بكثير عما جاء عنها في كتاب أحمد فخري واحة سيوة (١)،

تقول كاثرين عن العين: " من هنا مر الإسكندر الكبير وحاشيته وفتنهم هذا النبع عرفوه باسم عين الشمس، ربما لأن شموسًا كثيرة تتوالد على سطحه كما ترى"(٢)

كما تؤكد على ذكر هيرودوت لعين الشمس في كتابه:" هو أول من كتب التاريخ في العالم وزار مصر قبل أن يؤلف كتابه، يصفونه بأنه أبو التاريخ، – وهل ذكر في كتابه بالفعل هذه العين الصغيرة؟ قلت مبتسمة وأي ذكر! يقول يا عزيزي إن ماء هذه العين يكون دافئًا في الصباح ثم يبرد بالتدريج وتشتد برودته في الظهر في وقت ري البساتين ثم تتلاشى البرودة أثناء النهار ويسخن شيئًا فشيئًا كلما انتشر الظلام وعند منتصف الليل يغلي الماء في العين غليانًا رهيبًا قبل ان تنعكس الآية ليبرد من جديد شيئًا فشيئًا حتى مطلع الفجر"(٣).

١– يراجعأحمد فخري واحة سيوة صـ ١٦٦.

٢– واحة الغروب صـ ١١٠.

٣– واحة الغروب صـ١١٤.

الإسكندر الأكبر:

إمبراطور قائد أم طاغية؟ عّمر وشيد وبنى المدن ووحد الصفوف؟ أم قتل وذبح وسفك الدماء واستعبد الشعوب واغتصب أراضيهم ونصب نفسه إلهًا يعبد على الأرض، بنى بهاء طاهر في الرواية جدلًا حول شخصية الإسكندر من خلال وجهات نظر متباينة تبنتها الشخصيات مثل كاثرين وفيونا ومحمود تقول كاثرين: " انتهزت فرصة شعاع من الشمس دخل الصالة وبدأت أقرأ ما كتبه **المؤرخ آريان** عن آخر أيام الإسكندرهو مثلي معجب بالإسكندر، ليس من نقاده القساة بسبب ما فعله في حروبه بل يرى الجانب العظيم في شخصية الملك المقدوني"([1])، وقد جاءت كاثرين إلى الواحة رغم خطورة الرحلة بحثًا عن الإسكندر الذي تراه أعظم رجل في العالم معابد الواحة: تقول كاثرين: "أبحث عن أعظم رجل في العالم عن الإسكندر" .

أما فيونا لم تعجبها شخصية الإسكندر: " قرأت عنه الكثير ولم تعجبني سيرته أبدًا سفك كثيرا من الدماء ودمر كثيرًا من المدن يكفي ما فعله في ميناء صور في جبل لبنان، أغضب جلالته كثيرًا أن يقاوم أهلها غزوه لمدينتهم وأن يضطروه لحصارها طويلًا قبل أن يقتحمها فقتل من أهلها الآلاف ذبحًا وصلبًا... "([2])

تدافع عنه كاثرين: " أعرف هذا وغيره يا فيونا لكني كنت أفكر قبل مجيئك في أنه فعل أشياء عظيمة إلى جانب هذه المذابح، بنى مدنًا جديدة في كل مكان وحاول بعد أن غزا آسيا أن يوحد الشرق والغرب،.

---

[1]- السابق صـ ٢٨٩.

[2]- السابق صـ ٢٩٠.

- بالطبع يوحدهم عبيدًا في إمبراطوريته ! هل سمعت عن أي إمبراطورية لا تعلن عن أهداف نبيلة؟ ألا تقول إنجلترا الآن إن رسالة إمبراطوريتها هي نشر الحضارة والتمدن في العالم؟ تعالي انظري إلى هذه الحضارة المعجونة بالدم من أيرلندا إلى مصر إلى الهند إلى ما لا أدري أين!"([1])

وكذلك محمود الذي أوضح موقفه منه ورآه محتلًا لا فرق بينه وبين الإنجليز تقول كاثرين: " أريد أن أسأل الكابتن وصفي: هل يهتم أيضًا بآثار اليونانيين في مصر؟ هل يعتبرها آثارًا مصرية وهل يعتبر الإسكندر والبطالمة مصريين أيضًا؟

رد وصفي وهو مازال متجهمًا : بالطبع المصريون أنفسهم توجوا الإسكندر فرعونًا مصريًا والبطالمة عاشوا في مصر أجيالًا متعاقبة فهم مصريون أيضًا، "حكم خلفاء الإسكندر من البطالمة اليونان مصر قرونًا وسكن كثير من أشرافهم واحة آمون ودفنوا فيها"([2]).

نطق محمود أخيرًا على غير توقع: وهل تعتبرون الإنجليز الذين يحتلون بلدكم أيرلنديين لأنهم عاشوا فيها أجيالًا متعاقبة؟([3]) ، ترى كاثرين العظمة والفخر في شخصية الإسكندر ويرى وصفي القوة والغلبة والخلود في الفراعنة وترى فيونا الدموية والشر في شخصية الإسكندر ويرى محمود القهر والظلم والبغي في الطغاة المحتلين، وهي الرؤى التي ينقلها التاريخ ، فكل مؤرخ يسجل التاريخ من وجهة نره ، وهنا يأتي دور الأدب في الكشف عن متناقضات التاريخ

[1]- السابق صـ ٢٩١.

[2]- السابق نفس الصفحة

[3]- السابق صـ ٢٥٨.

وعرض الحقائق كاملة أمام الشعوب لتحكم حكمها أملًا في أن يكون حكمًا عادلًا .

خصص بهاء طاهر الفصل الثامن من القسم الأول من الرواية للإسكندر الأكبر وقد جاء من صـ ١٢١- صـ ١٤٣ استغرقها في حكايات يحكيها الإسكندر عن نفسه وعن تاريخه والواقع أن هذا الجزء مقحم على الرواية كان يمكن لبهاء طاهر مزجه مع الشخصيات، صحيح أنه نجح في نقله تاريخيًا بصياغة أدبية ولغة سردية على قدر عال من النضج الفني والتمكن السردي، ولكن كان يمكن له أن يضمن هذا الجزء في أحلام كاثرين التي ظلت تحلم بالإسكندر تقول:" أتاني الإسكندر مرتين في أحلامي بعد ندائي الغبي"([1]).

وأن يجعله حوارًا بينهما، لأن ربط تحضير الأرواح وحضور روح الإسكندر وحديثه، غير مقنع – فيما أرى – ولا يتماشى مع أحداث الرواية، الرواية تاريخية واقعية تخييلية، وليست خيالية ولا أسطورية، فما الداع إلى تصوير جلسة تحضير أرواح قامت بها كاثرين وحضور روح الإسكندر استجابة لطقوس كاثرين ومثل هذه الشعوذة، وأرى أن صوت الإسكندر لا يتماشى مع بقية الأصوات الساردة في الرواية، هذا الفصل يمكن أن يقتطع ويصبح رواية منفردة عن الإسكندر وشخصيته وحياته وموته كما رآها بالكيفية التي جاءت في هذا الجزء من واحة الغروب . كما أن شخصية كاثرين شخصية عملية مادية لا تؤمن بالخرافات ومن غير المنطقي أن تلجأ لتحضير الأرواح! .

[1]- السابق صـ ١٦٣.

ضريح الإسكندر الأكبر المفقود:

قضية غامضة حيرت العلماء في كل العصور ومازالت حتى الآن، بسبب اختفاء الضريح، وبسبب الروايات الكثيرة التي دارت حول زيارة بعض الرحالة الذين زاروا الضريح، ووصية الإسكندر، وقصة نقل الجثمان من بابل إلى منف ثم إلى الإسكندرية فمقبرة([1]) الإسكندر الأكبر واحدة من أكثر المواقع غموضًا. بعد موت الإسكندر الأكبر بفترة وجيزة في بابل، أصبح تملُّك جسد الإسكندر محل تفاوض بين بيرديكاس وبطليموس وسلوقس. وفقًا للمؤرخ نيكولاس ساندرز، رغم وفاة الإسكندر الأكبر في بابل، فضّل حكّام الأسرة الأرغية دفن جثته في إيجة) فيرغينا حاليًاكانت إيجة واحدةً من موقعين مرشّحين لدفن الإسكندر، أما الموقع الآخر فكان واحة سيوة، إلا أن بيرديكاس اختار إيجة سنة ٣٢١ ق.م، غير أن بطليموس اختطف الجسد وهو في طريقه إلى إيجة. ووفقًا لما ذكره باوسانياس والمؤرخ المعاصر لتلك الفترة باريان، فقد دفن بطليموس جسد الإسكندر أولاً في ممفيس. ومع نهاية القرن الرابع قبل الميلاد أو بداية القرن الثالث قبل الميلاد، في بداية عصر البطالمة، نُقل جسد الإسكندر من ممفيس إلى الإسكندرية حيث أعيد دفنه، ولم يعرف موقعها حتى الآن على وجه التحديد.ومنذ زمن أثارت الباحثة اليونانية "ليانا سوفالتزى" والتي كانت تشغل مديرة معهد الدراسات الهيللنيسنية في أثينا ورئيسة بعثة الحفريات في واحة سيوة، الكثير من الجدل حول أفكارها، ففي العام ١٩٩١، عرضت آراءها مصحوبة بمجموعة من الشرائح الملونة في أحد المؤتمرات العلمية، لكن

[1]- يراجع موقع :
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D٩%٨٥%D٩%٨٢%D٨%A٨%D٨%B١%D٨%A٩_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٥%D٨%B٣%D٩%٨٣%D٩%٨٦%D٨%AF%D٨%B١_%D٨%A٧%D٩%٨٤%D٨%A٣%D٩%٨٣%D٨%A٨%D٨%B١

أحدا من الحاضرين لم يعطها آذانا صاغية، ثم ألقت بحثا آخر حول الموضوع نفسه في مؤتمر خاص في جامعة القاهرة في عام ١٩٩٢.

وقد ركز بهاء طاهر على وجهة النظر التي تفيد بأن الإسكندر كانت وصيته أن يدفن في واحة سيوة ونص على ذلك في (على هامش الرواية) يقول: "أما صاحبة نظرية وجود المقبرة في واحة سيوة فهي باحثة يونانية تدعى لينا سوفالتزي وقد شرعت في التنقيب في الواحة في عام ١٩٨٩ وتوصلت إلى اكتشاف بعض المواقع الأثرية هناك وتقول إنها كانت في طريقها لاكتشاف المقبرة ذاتها ولكن أبحاثها توقفت في مطلع عام ١٩٩٦ لخلاف مع مصلحة الآثار المصرية. وقد ألفت لينا بعد ذلك كتابًا طويلًا عنوانه (مقبرة الإسكندر الأكبر في واحة سيوة)([1])

وقد تبنت كاثرين توضيح وجهة نظرها والتي مرجعيتها العالمة اليونانية ، من خلال حديثها عن تأثرها بأبيها وأنها جاءت إلى الواحة لتبحث عن الإسكندر وإشارة إلى وجود مقبرته في الواحة فتسأل كاثرين نفسها وتتذكر حديثها مع أبيها عن الإسكندر وضريحه، "أليس غريبًا أن كل حديث عن ضريح الإسكندر في الإسكندرية والذي كان أشهر معالمها ومقصد زوارها قد انقطع فجأة بعد القرن الرابع؟ ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ هل غرق هذا الضريح في البحر؟ هل تهدم في زلزال؟ هل دمره الرومان مثلما دمروا آثارً وثنية كثيرة بعد أن اعتنقوا المسيحية؟ أو هل نقل بعضهم الضريح إلى مكان آخر؟ لم لا؟ لو كان أبي حيًا لأقنعته أنه إذا صح ظنه فلا يوجد مكان أنسب من واحة آمون لنقل الجثمان المحنط والضريح إليه ألم تكن وصية الإسكندر الأخيرة هي أن يدفن هنا، في هذه الواحة، إلى جوار أبيه آمون؟"([2])

---

[1]- واحة الغروب صـ ٣٤٤.

[2]- السابق صـ ١١٧

ويواصل الكاتب توضيح الفكرة من خلال حوار كاثرين وأختها فيونا " على أي حال لست مشغولة بحروبه ولا إمبراطوريته التي شغلت مئات المؤرخين لكني مشغولة بقبره كما قلت لك، كانت وصيته أن يدفن هنا في سيوة، لكنهم دفنوه في الإسكندرية فأين قبره هناك؟

- ردت في دهشة: ملايين من قبور العظماء والفقراء اندثرت مع مرور السنين، فما الغريب أن يكون قبر الإسكندر من بينها؟
- الغريب أننا وجدنا في الإسكندرية كثيرا من مقابر اليونانيين العاديين وآثارهم، لكننا لم نجد أي حجر أو أثر يشير مجرد إشارة إلى ضريح ملكهم نفسه، الرجل الذي بنى المدينة والذي قال المؤرخون إن ضريحه أو معبده هو قلب الإسكندرية وإن أباطرة وشعراء ومشاهير كثيرين زاروه هناك لمجرد الفضول أو لالتماس بركته كإله"([1])
- ... شرحت لفيونا فكرتي عن إمكان نقل جثمان الإسكندر سرًا من المدينة التي بناها إلى الواحة التي أرادها مقره الأخير"([2]) .

ثم تواصل كاثرين سرد الحقائق التي تفيد وتشير إلى أن الضريح المختفي قد يكون نقل إلى الواحة، لأن هناك إشارات كثيرة تفيد بأن هناك من زاروا الضريح في الإسكندرية إذن فهو دفن في الإسكندرية ونقل جثمانه بعد دخول المسيحية إلى مصر وغلق جميع المعابد الوثنية بما فيها معبد الإسكندر، فلابد ان الأتباع المخلصين للإسكندر الراحل نقلوا ضريحه إلى الواحة.

ناقش بهاء طاهر في رواية واحة الغروب قضايا تاريخية مثيرة للجدل مدركاً كيف يمكن أن "تسهم الرواية بوصفها إحدى أدوات تصوير التاريخ الأكثر

[1]- السابق صـ ٢٩١.

[2]- السابق صـ ٢٩٢.

تفصيلًا وصدقًا في استجلاء ما حدث في التاريخ"([1])، ربما يأتي المزيد من العلماء للبحث عن مقبرة الإسكندر، والتي سيكون كشفها محولًا لمسار التاريخ، والحضارة والسياحة، وإن ثبت أن المقبرة موجودة في الواحة فإن هذا الكشف سينقل واحة سيوة لموقع جديد في خريطة مصر والعالم.

كما ناقش قضية شخصية الإسكندر نفسه، وتجلى بوضوح أن" قطب الرحى في الرواية هو دفع الظروف التاريخية إلى خلق وضع وجودي جديد لشخوصها يمكن من فهم التاريخ في حد ذاته وتحليله بوصفه وضعًاإنسانيا ذا مدلول وجودي([2])"، فيتساءل القارئ أين موضع الإسكندر في التاريخ ومع أي فريق نذهب، من عدوه طاغية من طغاة التاريخ، أم من عدوه موحدًا للصفوف وقائدًا عظيمًا؟

فالرواية التي توظف التاريخ هي "عملًا سرديًا يرمي إلى إعادة بناء حقبة ما من الماضيبطريقة تخييليةحيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة، إننا في الرواية التاريخية نجد حضورًا للمادة التاريخية لكنها مقدمة بطريقة إبداعية تخييلية"([3])، تمامًا بالطريقة التي قدم بها بهاء طاهر شخصيات تاريخية رئيسية مثل عرابي والإسكندر وجميع الأعلام الذين ورد ذكرهم في الرواية مثل:(عرابي – محمد عبيد – الخديوي– مسترهارفي– سلطان باشا– الإسكندر الأكبر –فيليب –أوليمبياس–آمون– هيرودوت – مينوتولي – آريان – روفلس وحتى سافو) وقد أجاد بهاء طاهر خلق التداخل بين الشخصيات الحقيقية والمتخيلة ، ودمج بينهم في صورة أدبية ينسى معها القارئ من الحقيقي ومن المتخيل.

---

[1]– جورج لوكاش الرواية التاريخية صـ ٧ .

[2]– محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسات في التخييل المرجعي، ط١، دار المعرفة للنشر، تونس،صـ ١٠

[3]– سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، دار رؤية للنشر والتوزيع، مصر ٢٠١١م صـ٢٢٦.

وهو يهدف من وراء ذلك أن يكشف بعض الجوانب التي غلفها الغموض، وأن يسير بالقارئ في طريق البحث عن المواقف الحقيقية والتأثيرات التي تخلفها أحداث التاريخ وليس فقط حشد وتسجيل المعلومات والأخبار فكاتب الرواية التسجيلية "يريد أن تكون الرواية كشفًا لحقائق تحظى بالإنكار الكاذب، والتبرير الزائف"([1]).

واختيار الكاتب الروائي للتاريخ وللماضي السحيق ينبع من اهتمامه بالحاضر والمستقبل يأمل الإفادة من تجارب وخبرات السابقين في خلق واقع أفضل وفق روح ووظيفة الأدب، التي لا ترتفع بالمجتمع فحسب وإنما ترقى بصاحبها إلى مكانة أفضل إنسانيًا وأدبيًا حيث" يمكن للكاتب أن يكتب وفق قواعد نوع معينة، لكن قدرته الإبداعية تجعله قادرًا على أن يرتفع بذوقه إلى مكانة أسمى"([2]).

نجح بهاء طاهر في المزج بين الأزمنة، أزمنة بعيدة قديمة وموغلة في القدم في عصر ما قبل التاريخ مع الإسكندر وآمون، وأزمنة قريبة من حقبة كتابة الرواية مثل فترة الثورة العرابية ، وزمن الرواية نفسه بعد انتهاء الثورة وفشلها وهو يسعى في ذلك للتقريب بين الأزمنة، وحقب التاريخ ليقارن بين نماذج القادة، ويبين وجه الاحتلال القبيح وروحه التي تسبح دومًا في دماء الضعفاء والمهمشين وهو وجه لا يتغير بتعاقب الأزمنة وإنما تعيد تلك الأزمنة نفسها مرات ومرات، وقد يكون هذا المسعى هو هدف حضور التاريخ بروحه وطاقاته ولكن" قد لايتحصل الكاتب الروائي بلوغ هذا المسعى ما لم يفتت زمنية السرد ويتعامل مع الأزمنة بتداخل وتمازج يوصف بأنه لازمني ليغدو ذلك النهج واحدًا من وسائل التعامل مع التاريخ المدون باتجاه جعله متغلغلًا في الواقع عبر كتابة واقعية تعصرن المؤرشف وتؤرشف المعاصر والبغية استشراف رؤى

[1]– مجدي توفيق:الرواية المعاصرة، قراءة جديدة، دار الهلال، فبراير ٢٠٠٨ ص ٦٨.

[2]– سعيد يقطين: قضايا الرواية العربية الجديدة ، صـ ١١٦.

مستقبلية أو تعميق رؤى الحاضر المعيش وكشف ملابساته أو إضاءة الأماكن المعتمة فيه وتنسيق الفوضوي والمشوش منه، ووفقًا لهذا التصور يصبح التاريخ حيًا نابضًا بما يمنح الحاضر مزيدًا من الامتداد والعمق وهذا ما يحتم على الروائي مهمة جديدة في كيفية الإفادة من التاريخ الرسمي مع الاستعانة بالمخيلة في صنع محكي تاريخي ينهض جنبً إلى جنب التاريخ الوقائعي ليصنع سردًا تاريخيًا"([1])، هذا السرد التاريخي يسير في اتجاه واقع جديد لا يكتفي بمجرد نقل الصور الواقعية، أو تكوين صور ذهنية لشخوص أماكن وأحداث، وإنما استحضار روح الماضي تقود إلى تقويم الحاضر وبناء المستقبل على أسس جديدة.

ومنها يصبح الروائي كاشفًا للرؤى والمواقف مقارنًا بين الأزمنة والشعوب، وكذلك تصبح الرواية "جنسًا مرنًا شديد المرونة، يقبل التطورات المختلفة والإفادة من الأجناس الأخرى"([2]) وتستطيع أن تستثمر التاريخ لتخلق خطابًا مغايرًا للرواية التخييلية الكاملة.

[1]– نادية هناوي سعدون: السرد الروائي بين التاريخي والتخييلي، مجلة فكر مركز العبيكان للأبحاث والنشر، ع٢٠ أكتوبر ٢٠١٧ ، صـ ٩٠.

[2]– ادوارد خراط: انهيار الحواجز الأدبية، مجلة العربي ع ٤٤٦، يناير ١٩٩٦، صـ٤٢.

الخاتمة:

رواية واحة الغروب واحدة من أهم روايات القرن الواحد والعشرين، انتقل بها بهاء طاهر إلى مكانة جديدة على مستوى الإبداع والنضج الفني فقد أمسك في عتمة التاريخ السحيق الموغل في القدم، بأحداث في إطار مغلف بمتاهات الماضي المعتمة ليضيء لها الطريق مخرجًا منها قيمًا جديدة جميلة وأفكار ورؤى قد تختلف عن أفكار التاريخ ومكانة جديدة للشخصيات والأحداث والمكان مع أيديولوجيات متباينة تظهر فيها الذات ومواطن ضعفها وقوتها وتأثير كل ذات منفردة على من حولها وخاصة في موضع السلطة.

يكمن الإبداع في الرواية في كيفية المزج المتقن بين الواقع والمتخيل، نجد الشخصيات المتخيلة وهم أبطال الرواية ينطقون بالتاريخ وكأنهم شخصيات حقيقية عاشت ووجدت بالفعل، حتى يصعب على القارئ الفصل بين ما هو واقع وما هو متخيل وخاصة في الأحداث التي يرويها محمود عن تجربته ومعايشته لأحداث الثورة العرابية، يحيط بذهن القارئ يقين راسخ بأن الأحداث حقيقية وأن محمودا وجد فيها وعاصرها بالفعل على الرغم من تأكيد الكاتب أنه لا توجد معلومات موثقة عن حياة المأمور وسيرته، وهنا تحقق مستوى جديدا من الإبداع في الرواية التاريخية.

كذلك اهتم بهاء طاهر بخلق إطار تخييلي حول كل شخصية تاريخية ورد ذكرها في الرواية، والعكس خلق إطارًا حقيقيًا مدعمًا بأحداث حقيقية حول كل شخصية متخيلة في الرواية، وهو ما أدى إلى المزج والتماهي الذي يقترب من الكمال بين الواقع والمتخيل.

ولا يمكن إغفال كيف ركز الكاتب على الأثر الناتج عن الحدث وليس الحدث نفسه، الآثار التي تخلفها خيارات الأشخاص الذاتية، على أنفسهم ومن حولهم ومن يأتي بعدهم، فرواية واحة الغروب لم تعتمد التركيز على معلومات

التاريخ وحشد الأحداث وإنما ركزت كل التركيز على الآثار الناجمة عنها، ونقلت وجهات النظر حول الحروب وأصحابها ، وحول الاحتلال وما يخلفه في الشعوب وأصحابها ، وكيف يمكن لخيار وقرار شخص واحد مثل الإسكندر وكل من شابهوه في التاريخ، أن يغير مصائر شعوب بأكملها.

تجربة قراءة النص الأدبي التاريخي تجربة جديدة تمامًا فهي تحمل بعدين، بعد إمتاعي فلسفي جمالي، وبعد إخباري تنويري تثقيفي يفتح أفق المتلقي على عالمين كبيرين من الجدل هما عالم الواقع وعالم اللاواقع .

قائمة المصادر والمراجع :

١. أحمد فخري واحات مصر المجلد الأول ترجمة د.جاب الله علي جاب الله ، مراجعة د. محمد جمال الدين مختار مطابع هيئة الآثار المصرية ، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية ، مشروع المائة كتاب ، دون تاريخ ،

٢. ادوارد خراط: انهيار الحواجز الأدبية، مجلة العربي ع ٤٤٦، يناير ١٩٩٦.

٣. بهاء طاهر : أبناء رفاعة ، دار الهلال القاهرة ، ١٩٩٣ ،

٤. بهاء طاهر :خالتي صفية والدير ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩١ ،

٥. بهاء طاهر :رواية واحة الغروب ، دار الشروق ، القاهرة – مصر ، ط١ ٢٠٠٧ م

٦. تزفيتان تودوروف، باختين المبدأ الحواري، تر: فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢ ١٩٩٦، صـ٢١٥.

٧. جورج لوكاش الرواية التاريخية تر: صالح جواد الكاظم ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق بغداد .ط٢ ، ١٩٨٦ م .

٨. الرواية والتاريخ دراسة في مدارات الشرق عبد الرزاق عيد ومحمد جمال باروت، دار الحوار للنشر والتوزيع- سورية، د.ت

٩. روبرت همفري: تيار الوعي، ت: محمود الربيعي، دار المعارف،القاهرة،

١٠. سعيد يقطين : قضايا الرواية العربية الجديدة ، الوجود والحدود ، دار رؤية للنشر والتوزيع – القارة- مصر ٢٠١١م.

١١. سيد البحراوي : الحب في المنفى رواية الحقيقة ، حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، ع١٣٦ ، ١٩٩٦.

١٢. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل ، سلسلة كتابات نقدية ، العدد ١٢١ ، الطبعة الأولى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٢ م .

١٣. طارق علي، تأملات في الرواية والتاريخ ، دار الكتب القطرية ، (د.ط) ٢٠٠٥م.
١٤. عبد الحميد عبد العظيم القط، بناء الرواية في الأدب المصري الحديث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م
١٥. عبد الرحمن أبو عوف : نبل البطل المهزوم في واحة الغروب ، الرواية قضايا وآفاق الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ع٢ ٢٠٠٩ .
١٦. عبد الرحمن علي عبد الرحمن ، معابد سيوة المفقودة وصفها ومحاولة تخطيطها كلية الآثار جامعة القاهرة والبحث منشور في :
١٧. عبدالرحمن الرافعي بك : الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي ، مكتبة النهضة المصرية– القاهرة – مصر، ط٢ ، ١٩٤٩ م ،
١٨. عبدالله إبراهيم ، التخييل التاريخي السرد والإمبراطورية والتجربة السردية، ط١ ، ٢٠١١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .
١٩. فيصل دراج الرواية وتأويل التاريخ نظرية الرواية والرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء –المغرب ، ط١ ، ٢٠٠٤ م .
٢٠. مجدي توفيق: الرواية المعاصرة، قراءة جديدة، دار الهلال، فبراير ٢٠٠٨ ص ٦٨.
٢١. محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسات في التخييل المرجعي، ط١ ، دار المعرفة للنشر، تونس، صـ ١٠
٢٢. محمد برادة لأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع، مركز دراسات البحر المتوسط ، الدار البيضاء .
٢٣. محمد علي الكردي، إشكالية الكتابة في الرواية الجديدة، فصول، المجلد الحادي عشر، العدد الرابع، الجزء الأول.شتاء ١٩٩٣
٢٤. محمود عبد الوهاب : واحة الغروب رواية بهاء طاهر ، مجلة إبداع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ع ٢.٣، ربيع وصيف ٢٠٠٧ م

٢٥. موقع
http://www.antiquities.gov.eg/DefaultAr/Archeological-sites/Pages/Archeologicaldetails.aspx?ArchCode=٩١
٢٦. موقع :
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D٩٪٨٥٪D٩٪٨٢٪D٨٪A٨٪D٨٪B١٪D٨٪A٩_%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٥٪D٨٪B٣٪D٩%٨٣٪D٩٪٨٦٪D٨٪AF%D٨٪B١_%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪A٣٪D٩٪٨٣٪D٨٪A٨٪D٨٪B١
٢٧. موقع
https://www.goodreads.com/book/show/٣٢٤٠٦٩١?from_search=true
٢٨. موقع:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D٩٪٨٥٪D٨٪B٩٪D٨٪A٨٪D٨٪AF_%D٨٪A٣٪D٩٪٨٥_%D٨٪B٩٪D٨٪A٨٪D٩٪٨A%D٨٪AF%D٨٪A٩
٢٩. https://qafilah.com/ar/%D٩٪٨٨٪D٨٪A٧٪D٨٪AD%D٨٪A٩-٨٨٪D٨٪A٨/%D٨٪A٧٪D٩٪٨٤٪D٨٪BA%D٨٪B١٪D٩٪٨٨٪D٨٪A٨/ ، و
https://www.ida٢at.com/sunset-osasis-about-post-defeat-/weakness
٣٠. https://scholar.cu.edu.eg/?q=sihawary/files/mbd_syw_lmfqwd.pdf
٣١. https://www.abjjad.com/author/٦٨٠٤٨٩١/%D٨٪A٨٪D٩٪٨٧٪D٨٪A٧٪D٨٪A١-%D٨٪B٧٪D٨٪A٧٪D٩٪٨٧٪D٨٪B١موقع
٣٢. نادية هناوي سعدون : السرد الروائي بين التاريخي والتخييلي ، مجلة فكر مركز العبيكان للأبحاث والنشر ، ع ٢٠ أكتوبر ٢٠١٧ .
٣٣. يمنى العيد: فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، ط ١، بيروت، ١٩٩٨